مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة
للقصة الخالدة

نيتوتشكا

للروائي الروسي الكبير
فيدور دستويفسكي

فيدور دستويفسكي

نيتوتشكا

NITOTCHKA

PAR

FEDOR DOSTOIVSKY

الثمن ١٢ قرشا

المزيد من القوة
لا تتأثر لزوجته بتغير درجة الحرارة
لا يترك اية رواسب معدنية
له جميع مميزات زيوت الخدمة الشاقة
يحقق الوفر في استهلاك البنزين
والصيانة وعمر المحرك
شل
X-100
متعدد الدرجات
اعتمد دائما على منتجات وخدمة شل

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الواحد والستون

نيتوتشكا

ترجمة : سامى الدروبى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــــا كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وستون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .
ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـــوالة بريدية .

- ١ -

لا اتذكر ابى . فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات . وتزوجت امى مرة اخرى . الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قد قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الالام . كان زوج امى موسيقيا ، لقى مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم واشذهم . وكان اثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث القى ظله على حياتى كلها بعد ذلك . ولابد لى أن اذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة . وكل ما سأرويه عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج امى) وصديقه الحميم .

كان عمى يدعى «يافيموف» . وقد ولد فى ارض احد المالكين الاغنياء جدا . وكان ابوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، وانخرط فى جوقة هذا المالك الفنى . وكان يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك ارضه يوما ، ولو للذهاب الى موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن المياه فى الخارج يقضى بضعة اسابيع فحسب ، لا لشىء الا ليسمع عازفا على الكمان شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيى هنالك ثلاث حفلات .

وكان يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده تقريبا . وقد انخرط عمى فى هذه الجهوقة عازفا على الكلارينت . وكان فى الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا . لقد كان يعيش فى تلك المقاطعة نفسها كونت غنى جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح أقامه فى بيته . وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقته ، وهو ايطالى ، لسوء سلوكه .

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سىء السلوك حقا ، فما كاد يطرد حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل اخذ يتسول ، ولم يعد فى وسعه أن يجد عملا فى اى مكان بهذه المنطقة . هذا الرجل هو الذى صادقه عمى . ولم يلحظ احد فى عمى اى تغير يمكن ان يعزى الى تأثير رفيقه فيه ، حتى ان المالك الذى منعه فى اول الامر من معاشرة الايطالى انتهى اخيرا الى غض النظر عن ذلك . ثم مات الايطالى بغتة ، ففى ذات صباح اكتشف بعض الفلاحين جثته فى حفرة احد السدود . وبين التحقيق الذى تم فى هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية . وكان كل مايملكه الايطالى محفوظا عند عمى الذى لم يلبث أن بين انه صاحب الحق فى تركته ، اذ ابرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر فيها ان « يافيموف » هو وريثه . وكانت التركة تتألف من بدلة سوداء عنى المتوفى بالاحتفاظ بها لانه كان يأمل دائما ان يجد عملا ، ومن كمان لايدل مظهره على انه ذو قيمة كبيرة . ولم يعترض أحد على هذا الميراث . ولكن

بعد مدة قصيرة جاء العازف الاول على الكمان لدى الكونت، جاء الى المالك يحمل كتابا من سيده ، وفى هذا الكتاب يرجو الكونت بل يلح فى الرجاء أن يبيعه يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة فى الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة آلاف روبل ، ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقد الصفقة بينه وبينه شخصيا ، الا أن يافيموف كان يرفض دعواته هذه فى عناد . ويؤكد الكونت فى كتابه ان الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه لاينوى أن يخدع احدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان يافيموف، اخيرا ، مخطىء فى الشك فيه ، فهو لا يريد ابدا أن يستغل بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب ان يرد يافيموف الى صوابه .

واستدعى المالك زوج امى على الفور وقال له :

– لماذا لا تريد ان تبيع كمانك ؟ انك لست فى حاجة اليه. ثم ان الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل ، وهو الثمن الذى يستحقه الكمان . وتخطىء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على ان سيده يستطيع ان ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لابد أن يضرب على

وتر حساس فى نفس المالك . لقد كان هذا المالك يزهو دائما بانه يعرف كيف يعامل موسيقييه ، وكان يعدهم جميعا ، من أولهم الى اخرهم ، فنانين حقيقيين ، وكان يعتقد ان جوقته ، بفضلهم ، لاتفوق جوقة الكونت فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

- حسنا . سابلغ الكونت انك لاتريد أن تبيع كمانك . سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وانك تشعر أن لك الحق كله فى أن تبيع كمانك او أن لا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى - انا الذى اطرح عليك السؤال الآن - ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هى الكلارينت ، وانت لا تجيد العزف حتى على الكلارينت . تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل . (من ذا الذى كان يظن أن هذه آلة ذات قيمة ؟ !) .

فابتسم يافيموف ، واجاب :

- كلا يا سيدى ، لن اتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن ..

- اننى لا اكرهك على شىء . اترانى اعذبك لاحملك على مالا تريد ؟ !

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصة وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع ان يستنتج من ذلك ان حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد . واضاف المالك حانقا :

ـ اذهب . ياناكر الجميل ، ولا احب أن أراك بعد الان ابدا . **ماذا كنت لولاى ، انت وآلتك ، الكلارينت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها؟** انت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من النـــاس . انت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره . اذهب . لقد هيجب عضبى .

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهم ، لانه كان يخشى نفسه ، ويخاف ثورات غضبه . وما كان ليحب ابدا أن يقسو فى معاملة «فنانيه» كما كان يسمى موسيقييه .

وظن أن الامر قد انتهى ، مادامت الصفقة لم تتم . ولكن ها هو عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه فى هــذه المرة لا بوحى من الكونت ، مشــــكلة جديدة . وهى الآن مشكلة رهيبة . انه يشى بزوج أمى على أنه قاتل الايطــالى ، وعلى أنه أقدم على قتــله املا فى الاستيلاء على ميراث ضخم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ، وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبثا حاول الكونت والمالك أن يدافعـا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الاساليب ، أن يكف عن اتهامه ، فقد اصر على الاتهام اصرارا قويا لم يحد عنه . ثم بينا له أن تشريح جثــة المتوفى ، رئيس الجــوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان وشايته تخالف البداهة ، وانه انما اقدم على ما اقدم عليه حبا فى الانتقـــام او بداعى الغضب ، لانه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها (من أجله

اذن كان يريد الكونت أن يشترى الالة) . لكن الموسيقي ظل متمسكا برايه ، واخذ يقسم انه على حق ، وان السكتة القلبية لم يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد . وكان من الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقبض على يافيموف واودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها واثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكمانى بتهمة الوشاية الكاذبة .. ومع ذلك فانه ظل مصرا على رايه، وظل يدافع عن هذا الراى حتى النهاية . لكنه اضطر ان يعترف بانه لم يكن يملك من الادلة غير ما امده به خياله ، وبانه الف المسألة كلها من شكوكه واستنتاجاته . ومع ذلك ، ورغم ان اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا قاطعا ، **فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل !** .. ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجاة بنزيف فى الدماغ . ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية، يعامل عمى اكرم المعاملة . وقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، واعطاه مالا ، واتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين ، ولما ظهرت براءة يافيموف اقام حفلة للجوقة كلها .

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لانه كان يحترم الاخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك .

.. وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وانه ينوى اقامة بضع حفلات موسيقية . ولم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته . وكان له ما اراد ، فوعده الفرنسى بالمجىء ، ووزعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شىء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان .

ففى ذات صباح ، علم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه !.. واخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل . لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تعوزها الآن كلارينت . ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجىء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان تكن مقنعة ، انه سيكون بعد الآن شديد الحذر فى علاقاته مع أشخاص يملكون جوقة موسيقية ، **ويبدى اسفه على أن موهبة عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر أن مثال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه فى روسيا ، أوضح برهان على صدق كلامه .**

صعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة . انه يطعن فى الصميم . كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ،

يافيموف نفسه ، هذا الذى عنى بأمره كل تلك العناية ، وأسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيء لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه فيه اشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى . ان الفرنسى يدعى أن يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له بمواهبه ، واكره على العزف على آلة أخرى . وبلغ تأثر المالك بهذه الرسالة انه قرر الذهاب فورا الى المدينة للقاء الفرنسى . لكنه فى تلك اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له انه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هو الآن فى بيته مع يافيموف ، وانه قد استاء من وقاحة يافيموف واكاذيبه ، قد اصدر اوامره بمنعه من الخروج . وأضاف الكونت الى ذلك أن لابد من مجيء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفقه يافيموف قد أثر فيه شخصيا ، وان الأمر أخيرا يبدو له من الخطورة بحيث لابد من توضيحه بأسرع ما يمكن .

واسرع المالك فمضى الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذ ذاك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور فى خلده ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول الفرنسى ، قد كان وهو عنده عازفا سيئا على الكلارينيت ، وأن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها ان الموسيقى الذى هجره عازف على

الكمان ، واضاف الى ذلك ايضا ان يافيموف لم يكن عبدا ، وانه كان يتمتع بحرية تامة ، وانه كان فى وسعه دائما أن يتركه لو كان يسىء اليه حقا !

وصعق الفرنسى من الدهشة . ونودى على يافيموف الذى تبدلت معالم وجهه حتى ما يكاد يعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، واخذ يجيب فى سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى . وقد أثار ذلك حفيظة الكونت الى ابعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير ، وانه واش كذاب ويستحق أرذل العقاب. فأجابه عمى قائلا :

ـ مهلا يا صاحب السعادة ، فان لى معك شأنا منذ مدة طويلة ، واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك اوشكت أن يحكم على بتهمة القتل . انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعههذا الاتهام الفظيع ، وكان هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الامور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه لا يمكن ان يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وانه يرجو ان يسمح له بمحاسبة هذا الشخص على الفور فى البيت نفسه . وأظهر الفرنسىاستياء شديدا وقال انه لا يفهم هذا النكران للجميل . فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى ذلك الحين

فى جوقة المالك ، وهى حياة لم يستطع ان يتركها قبل الآن لفقره الشديد. وما أن فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى المدينة .

***

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يفتح ، ورأى المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا . كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا اخرجه من سريره فى مثل هذه الساعة ، ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا . ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد امام يافيموف ، وقد ظهرت عليه علائم التأثر العميق .

– «ياجور» ، لماذا أهنتنى هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج بعاطفة عميقة ، بفم غريب !

وأخيرا اجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

– لا ادرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك ان الشيطان هو الذى أضلنى . لا أدرى انا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو السبب فى ان الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :
ــ ياجور ، عد الى ، سأنسى كل شىء ، سأغفر كل شىء ، اسمع : ستكون العازف الأول على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك اكثر مما أدفع للآخرين .
ــ كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك . قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر بى لحظات من القلق الخانق أوثر فيها ان لا أكون قد ولدت . والآن لن استطيع ان اجيب انا نفسى . الافضل ان تتركنى يا سيدى . لقد الم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !
ــ من هو هذا الشخص ؟
ــ ومن عساه يكون ، ان لم يكن ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس .
ــ أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى ياجور ؟
ــ نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى . ليتنى لم اعرفه !
ــ وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد ، يا عزيزى ياجور ؟
ــ كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التعليم . لقد علمت نفسى بنفسى . اما هو فلم يزد على أن يدلنى . نعم ، **لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من ان أتعلم هذا الفن . لقد اصبحت الآن لا أعرف ماذا اريد.** تستطيع ان تقول لى يا سيدى : « ماذا تريد يا ياجور ؟

يمكنني ان اعطيك كل ما تريد » . اما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأنني لا أعلم انا نفسي ماذا اريد . كلا ، يا سيدى ، الأفضل ان تتركني . أقول لك هذا للمرة الثانية . أحب ان اتصرف تصرفا يرسلني الى ابعد مكان ممكن ، فينتهي كل شيء .

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

— لن أتركك هكذا يا ياجور . اذا كنت لا تحب ان تعود الى ، فلك ذلك . انت حر ، ولا استطيع ان احجزك ، لكنني لن اتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا ياجور . خذ كمانك ، اناشدك الله ، واعزف قليلا . افهمني . انني لا آمرك أمرا ، ولا احاول أن اكرهك اكراها ، وانما اتوسل اليك باكيا . اناشدك الله ، يا عزيزى ياجور ، أن تعزف لى ما عزفته للفرنسى . أطعني . انك عنيد مثلى . لكل منا طبعه ، يا عزيزى ياجور . لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول ان تفهم انت عواطفي . لا استطيع ان أعيش ما لم اسمعك تعزف ، بسرور ، ما عزفته للفرنسى .

— ليكن ما تريد . لقد عاهدت نفسي على ان لا اعزف امامك يا سيدى ، على ان لا اعزف امامك ابدا . ولكنك اثرت فى قلبى الآن ، **فساعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعني بعد ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !**

عندئذ امسك يافيموف بكمانه ، واخذ يعزف مقطوعة من تاليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة —

(ويؤكد «ب» ان هذه المقطوعة هى أول واحسن أثر الفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شيئا آخر بمثل هذه القـوة) ـ وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئـك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسـيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال . فلما انتهى يافيموف من عـزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه ، واخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، ومد يده بها الى عمى وهو يقول :

ـ الآن تستطيع أن تمضى ، يا ياجور . سـأخرجك من هنا ، وسأتولى تسـوية الأمر مع الكونت . ولكن اسـمع جيدا : اياك ان تلقانى يوما ، ولو فى طريق. امامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجها لوجه ، فسيسىء ذلك الينا كلينا . والآن وداعا !.. بل اسمع : نصيحة أخرى اسديها اليك قبـل أن تمضى ، نصـيحة واحـدة : لا تدمن على الشراب. وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تفتر . اقول لك هذا نصيحة أب لابنه. أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات ، فانك ان ألم بك حزن ، أو اصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات) فأخـذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك لأن تفطس فى أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصـاحبك الايطالى . والآن وداعا . بل انتظر . عانقنى .

وتعانق الرجلان . ثم مضى عمى حرا طليقا .

ولم يكد يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز المنطقـة ، واخذ يصـاحب رواد أقذر الحـانات

واحقرها ، وكانت نتيجة ذلك ان اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى الأول – ولعله كان الكمانى الوحيد ! – وطبيعى أن هذا لا يتفق مع اهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر . لقد كان يريد أن يمضى بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وان يدرس هنالك ، وان يجد عملا مناسبا ، وان يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا . ولم تجر حياته فى المسرح المتجول بلا عقبات . فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ، وترك المسرح المتجول . وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر ، تحت تاثير اليأس ، ان يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويساله بعض المال ، رغم ان ذلك يجرح كبرياءه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق اى جواب على رسالته تلك . وكان قد كتبها بلهجة عنيفة . فكتب رسالة اخرى ذليلة ، يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه مرة أخرى أن يهب الى نجدته . ووصله الجواب : أخيرا ارسل اليه المالك مائة روبل ، مع بضعة اسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة بعد الآن. وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم ان يسافر فورا الى بطرسبرج ، لكنه بعد ان سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفى بنفقات السفر . وهكذا ظل فى الأقاليم ، وانخرط مرة اخرى فى جوقة صغيرة . وفى هذه المرة ايضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة. واخذ ينتقل من عمل الى آخر ،

وقد قر فى راسه ان يمضى الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل . لكنه قضى على هذا فى الاقاليم ، ست سنين طوالا . وأخيرا استولى عليه اليأس. **ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا فى هذه الحياة البائسة المشوشة التى لم يكن يلقى فيها الا ذلا بعد ذل** . وفى ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه ، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق . وهناك أقام فى شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ «ب» الذى كان قد وصل من المانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض . وسرعان ما قامت بينهما صداقة . وما يزال «ب» حتى الآن يتحدث عن صداقتهما فى ذلك الوقت بتأثر عميق ، لقد كان كل منهما شابا،وكانت تطوف فى راس كل منهما أحلام واحدة ، ويهدف الى عين الغاية التى يهدف اليها الآخر . الا أن «ب» كان لا يزال شابا فى زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل . وكان المانيا فوق كل شىء وقبل كل شىء ، يمضى الى غايته بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ما سيصبحه ، فى حين أن رفيقه الذى ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الستة التى اضطر ان يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة فى مسرح صغير بالعاصمة ، وتارة فى جوقة حقيرة . لقد كانت الفكرة الثابتة التى تسيطر عليه ايامذاك

هى ان يخرج من هذا الوضع الحقير ، ان يدخر قليلاً من المال ليلحق ببطرسبرج . الا ان هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلى مبهم فقد سناءه ، بمر السنين ، شيئا بعد شيء ، فى نظر يافيموف نفسه ، حتى اصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان يتحرك بلا ارادة ، او تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكانما قد أعشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل فى بطرسبرج . كان فى حماسته شيء من الكسل والمرارة ، فلا عمل لها الا ان تجعله يفتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب .

وكانت حماسته الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين «ب» ، حتى بلغ من شدة اعجابه بعمى ان اعتقد انه سيصبح فنانا عبقريا ، وكان لا يستطيع ان يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو . ومع ذلك فان «ب» لم يلبث ان فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح ان هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، **موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة** . ورأى ان كل ذلك لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، واحلام فى العبقرية التى يخال المرء ان يحملها فى نفسه .
وقد تحدث «ب» قائلا : « ولكنى لم أكن استطيع ان امتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة . لقد ظل المسكين ،

خلال سبع سنين طوال ، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادىء الأولية فى الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لابد منه لمبتدىء . وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية. كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان فى العالم . وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل ابسط مبادىء الطباق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا . الا ان ما كان يدهشنى اكثر من أى شىء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير . لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه للموسيقى من العمق بحيث لم يكن له بد من أن ينخدع فى حقيقة قيمته ، وان يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب ، بل كذلك أحد جهابذة الفن وعبقريا من عباقرته . **وكان يتفق له أن يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلغ من العمق أننى كنت اقف حيالها مشدوها** ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، وهو الذى لم يقرأ فى حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا . ولا أكتم أننى استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم . وكنت مطمئنا الى مصيرى. لقد كنت ، أنا ايضا ، شغوفا بفنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم اننى كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الفذة ،

وأننى سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك . على أننى أستطيع ان اعتز بأننى لم أقبر ما حبتنى به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة . ان الناس ليثنون على مرونتى فى العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشة . لكننى أعترف بأننى أدين بهذا للعمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسى ، أدين به لمعرفتى الواضحة بقيمتى الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التى تنتج عن رضى المرء عن نفسه . »

وقد حاول «ب» ان يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما اصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا ان رفيقه كان يضيق بنصائحه ويغضب منها غضبا شديدا . ولم تلبث صداقتهما أن ساورها الفتور . ولاحظ «ب» إن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شىء ، وان وثبات حماسته اصبحت اندر من ذى قبل ، واصبح يعقبها نوع من القلق القاتم المحطم . واخيرا هجر يافيموف كمانه خلال اسابيع طويلة . ولم يكن السقوط النهائى ببعيد . اذ لم يلبث أن انهار المسكين انهيارا تاما . وتحقق كل ما تنبأ به المالك :

فها هو يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شىء . وكان «ب» ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا . ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى اصبح يتحاشى ان يوجه اليه اى نقد .

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على «ب» ، ولكن ذلك لا يشعره بشيء من الاسف او الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء . لقد كان «ب» يعطى بعض الدروس فى الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف فى حفلات ساهرة لدى بعض اهل التجار من الألمان ، او لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لايتقاضى الا أجراضئيلا، الا انه اجر على كل حال . وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيها رفيقه . وكان يعامله فى كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة .

وفى ذات يوم قال «ب» لعمى ، فى كثير من الرقة واللطف ، ان من الأفضل له أن لا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة اصابعه . لكن يافيموف غضب غضبا شديدا . وكأنما تخيل ان صاحبه سيركع متوسلا اليه ان يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا. وفى مرة أخرى احتاج «ب» الى زميل يعزف فى حفلة ساهرة دعى اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا ان هذا العرض أثار فى يافيموف غضبا هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه «ب» ، بحيث يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين »

الحقيرين الذين هم أحط من أن يفهموا شيئا من عزفه ومن مواهبه . ولم يجب «ب» على هذا الكلام بحرف واحد . الا ان يافيموف فكر فى هذا العرض بعد أن مضى صديقه الى حفلته ، **فاعتقد ان صديقه قد رتب هذا كله ليفهمه بانه يعيش عالة عليه ، وان من واجبه ان يعمل هو ايضا .** فما أن رجع «ب» انتفض يافيموف يؤنبه على وضاعة سلوكه ، ويصرح له بأنه لن يبقى معه بعد الآن لحظة واحدة .

وغاب يافيموف فعلا ، الا انه عاد بعد ثلاثة ايام ، كأن شيئا لم يحدث ، واستأنف حياته كما كانت !

وما كان يصد «ب» ، مدة طويلة ، عن تحقيق نواياه فى التحرر من هذه الحياة التى لا يرضاها لنفسه وفى ترك رفيقه الى الأبد ، الا التعود والصداقة ، وكذلك قلقه على هذا الانسان الذى يسير الى الانهيار . الا انهما انفصلا فى آخر الأمر ، وابتسم الحظ للصديق «ب» ، فوجد حاميا خطير المنزلة والجاه ، بعد ان أحيا حفلة نجحت نجاحا رائعا . ومنذ ذلك الوقت ظهر انه فنان كفء ، وذاع صيته ، بل بلغ من سرعة ذيوع الصيت أن استطاع أن يجد عملا فى جوقة الأوبرا . وحين انفصل عن يافيموف أعطاه بعض المال ، وتوسل اليه ، والدموع تترقرق فى عينيه ، أن يعود الى الصراط القويم . انه ، الى هذه الساعة ، لا يستطيع أن يتذكر يافيموف دون ان يشعر بانفعال قوى . ان علاقاته بيافيموف ، **ابان الشباب ، خلفت فى نفسه أعمق الأثر . لقد بدأ الاثنان عملهما معا ،**

وكان تعلق أحدهما بالآخر من القـوة بحيث أن تصرفات يافيموف الغريبة ، وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد «ب» الا تعلقا بصديقه . لقد كان «ب» يفهم صديقه ويقرأ ما فى نفسه . كان يوجس النهاية التى سيصير اليها كل هذا . وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى الآخر ، وأخذا يبكيـان . وفى تلك السـاعة صرخ يافيموف قائلا ، من خلال الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على شفا الهاوية ، كمحتضر ، وختم كلامه ، وقد امتقع لونه ، بقـوله :

ـ اننى لا املك أية موهبة .

وتأثر «ب» فى ذلك تأثرا رهيبا . ثم قال لصديقه :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش . أنت مخطىء . انك بهذا اليأس تدفع بنفسك دائما الى الانهيار . انك لا تملك جلدا ولا شجاعة . تدعى الآن أن ليس لك موهبة . لكن هـذا يرجع الى حزنك . ليس صحيحا انك لا تتمتع بموهبة . انك تتمتع بالموهبة ، أؤكد . أؤكد لك أن الموهبة لاتعوزك . هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها . وأستطيع أن ابرهن على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها .

لقد ذكرت لى انك تالمت فى حياتك كثيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك هذا اليأس نفسه . فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الأول ، ذلك الانسـان

الغريب الذى طالما حدثتنى عنه والذى ايقظ فى نفسك حب الموسيقى ، ادرك فيك الموهبة الموسيقية . **لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك ماذا يجرى فى أعماق نفسك . لم تكن تشعر بالراحة والطمانينة عند المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد .** ومات استاذك قبل الأوان ، وتركك لآمال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا اهم ما فى الأمر . كنت تشعر ان عليك أن تسلك سبيلا أخرى ، سبيلا أرحب . كنت تشعر أن حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطريق اليها . ويئست ، فصرت تكره كل ما حولك . ان السنين الست التى قضيتها فى بؤس متلاحق لم تذهب سدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت قواك ، حتى اصبحت تفهم فنك وقيمتك . يا صديقى لابد من الصبر والشجاعة . ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتنى به انا . انك فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى اسأل الله ان يهب لك جزءا مما وهب لى من صبر . اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحك بذلك صاحبك المالك الممتاز .. **واستانف من البداية ، استانف من الألف باء . ما الذى يقعدك ؟ الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان .** وهو امر لابد منه فى البداية . انك الان انسان مهمل ، لا يحتاج اليك احد ، ولا يحتاج احد ان يعرفك .. تلك هى الحياة . وسترى فى المستقبل قساة آخرين حين يعرف من أنت ، وما قيمتك . سيخنقك الحسد وستخنقك النذالات وحماقة الناس اكثر مما

يخنقك الفقر .ان الموهبة فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن تفهم ، وسترى كيف سيعاملونك حين تشارف تحقيق غايتك . سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل .. لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك. لن يدلوك على ما فيك من عناصر الخير والصدق . بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا غير عيوبك، ولن يبينوا لك الا ما انت فيه مخطىء ، سيفعلون ذلك وفى نفوسهم فرح خبيث . واذا تظاهروا لك بأنهم لا يحفلون بأمرك بل يزدرون شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من اخطاء (كأن الانسان معصوم من الخطأ !).

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئا ، انت انسان صلف فى غير داع الى صلف . وانت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل منفوخ .. ذلك هو سر شقائك ، لأنك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير . سيعذبونك بوخزات الابر . لقد بدأت انا نفسى أشعر بذلك . هيا يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن . ولست أعزل من كل سلاح .انك تستطيع ان تكسب رزقك . لا تحتقر التمارين اليدوية المبتذلة : بس يضيرك ان يكون عزفك اول الأمر كنشر الخشب ثقلا، فلطالما نشرت انا الخشب طوال سهرات برمتها فى بيوت اولئك البائعين التافهين . الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف فى

التفكير : راسك وحده هو الذى يعمل . انت جرىء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك ان تمسك بقوسك ارتعشت من الخوف .

ان كبرياءك قوية ، ثم انت لا تجرؤ على تحقيق شىء . كن شجاعا وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا اعوزتك القوة حقا ، فعليك يومئذ بالمغامرة : **ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما بلغت هدفك على هذا النحو .وهبك لم تبلغه ، فامض معذلك الى امام.** لن تخسر فى ذلك شيئا ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فنك . أجل يا صديقى ، ان «المغامرة» امر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !

***

وقد أصغى يافيموف فى اول الأمر الى صديقه القديم وهو فى حالة انفعال عميق . وحين كان «ب» يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تنتعشان وتحمران شيئا فشيئا . والتهبت عيناه ببريق من الجراة والأمل غير معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجراة النبيلة مرة اخرى الى الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فحين أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد اخذ يتململ . ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره . الا انه انتقل فجاة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا :

« لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى . اننى اعرف ما ينبغى لى أن اعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحيى فى القريب حفلات موسيقية رائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » .. ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه . وعندئذ افترق الرفيقان القديمان .. الى حين طبعا .

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبثا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. فعاشرة .. الى ان نفد صبر «ب» . حتى اذا عاد يافيموف مرة أوعز «ب» ان يقال له ان صاحبه ليس فى البيت . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !

***

وانقضت على ذلك بضع سنين . وفى ذات يوم بينما كان «ب» عائدا من عمله ، اصطدم — فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة — بسكران خلق الثياب يناديه باسمه . كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يعرف . واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعا لا يمحى .

وشعر «ب» بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهم أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جره الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع «ب»

ان ينعم النظر فى يافيموف. **لقد كان صاحبه فى خرق بالية، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا بآثار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته .**

وابتدره «ب» قائلا :

– كيف انت ؟ واين انت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك. وكانت أجوبته على اسئلة «ب» مفككة متقطعة، حتى خيل الى «ب» انه امام انسان مختل . واعترف يافيموف اخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل ان يقدم له شىء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة اصبح يرفض ان يقدم له الشراب دينا منذ مدة طويلة .. واحمر وجه « يافيموف » وهو يقول هذا الكلام ، رغم محاولته ان يتجلد .. وكان منظر هذا كله يثير الشفقة والحزن والالم ، واهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة . لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها . وامر ليافيموف بشراب .. فما ان احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا بالجميل ، وحاول ان يقبل يد « ب » المحسن اليه . وصعق « ب » حين علم اثناء الفداء ان صاحبه البائس قد تزوج !.. الا ان دهشته تجاوزت كل الحدود حين قال له « يافيموف » ان امراته هى السبب فى انهياره ، وانها قتلت موهبته .

فسأله « ب » :

ـ وكيف ذلك ؟!

فأجاب :

ـ انقضت سنتان ، ياعزيزى ، لم المس خلالهما كمانى . انها امرأة من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع أن نعمله معا ـ أنا وهى ـ هو ان نتضارب !

ـ ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

ـ كنت اتضور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك الف روبل . وفقدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى .. لم أدفعها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، اما بقية الموهبة ، فقد ضاعت هى الاخرى !

ولاحظ « ب » ان يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعذار ..

واردف يافيموف يقول :

ـ لقد هجرت كل شىء ..

وهنا صرح بانه فى المدة الاخيرة كاد يصل الى كمال استلاكه ناصية فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » ان يلحق به ، رغم انه احد اوائل العازفين على الكمان فى العاصمة !!

وفوجىء « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

ـ ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك ان تبحث عن عمل ؟

فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار :

— عبثـــا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟ لا شيء .. لا شيء البتة . قصـــاراكم ان تنفخوا لحنا راقصـــا فى بالية . انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام افسد عليـكم راحتـكم ؟ ظلوا اذن حيث انتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة اخرى بحركة من يده ، وترنح على مقعده ثمـلا ، ثم دعا « ب » أن يصـحبه الى بيته ، وألح فى الدعوة . الا ان « ب » رفض ، واكتفى بأن اخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتى لزيارته فى الغد . واخـذ يافيموف — وقد اكتظت معدته ودارت فى راسه الخمرة — ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخـرة ، ويحاول ان يلذعه لذعا قويا بأية وسـيلة . وحـين نهض « ب » يـريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الفالى وقدمه اليـه ، كما يفعـل الخادم مع عظيم من العظماء . وبينما كانا يجتـازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبـه للخـدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمـان فى العاصمة ، بل العازف الوحيد .. والخلاصـة انه كان فى منتهى الوقاحة .

ومع ذلك ، مضى « ب » الى زيارته فى صـباح الغد ، فى الغرفة الحقيرة الوحيدة التى كنا نسكنها جميعـا .. كنت يومئذ فى الرابعـة من عمـرى ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمى سنتان . ولقد كانت أمى شقية

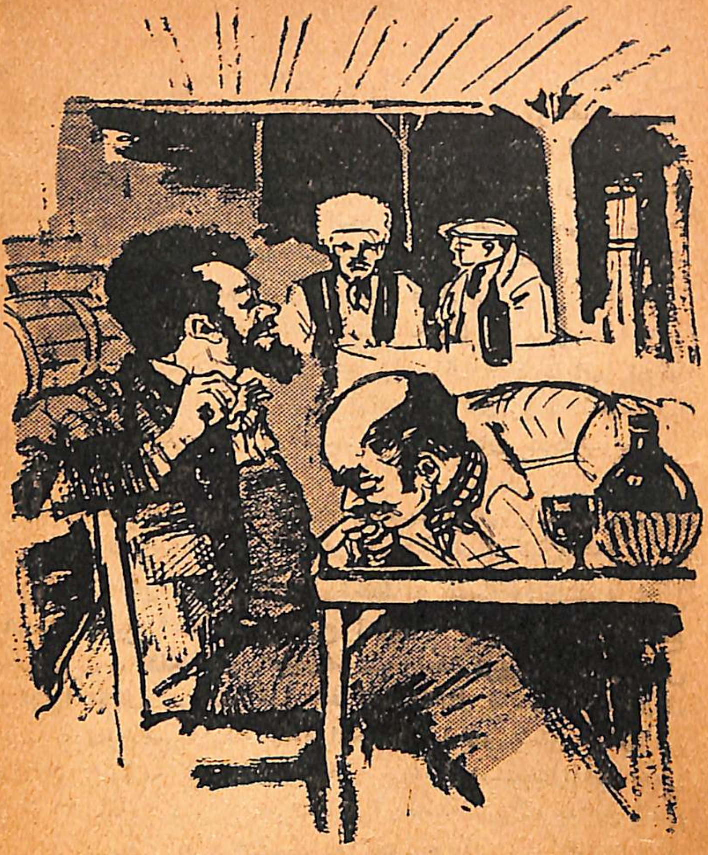

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمـع من عينيه عرفانا بالجميـل ، وحاول أن يقبل يد « ب » المحسن اليه · (ص ٣٢)

حقا . كانت قبل ان تتزوج ابى تعمل مربية ، وكانت على جانب من الثقافة ، الا انها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو ابى .. ولم تعش معه الا سنة واحدة ، مات ابى بعدها فجاة . وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين وارثيه ، فأصاب امى قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت امى وحيدة معى .. وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد ان اصبحت تحمل على ذراعيها طفلا .

وفى تلك الاثناء ، تعرفت صدفة على « يافيموف » ، فاحبته وافتتنت به ، والحق يقال . ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حالمة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع .

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائعة ..وراق لها ان تكون مرشدا وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته .

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع احلامها وجميع آمالها ، ليحل محلها الواقع المحزن . ذلك ان يافيموف ــ ولعله تزوجها من اجل روبلاتها الالف ــ تنكر لها منذ نفد المال ! .. وكأنما راق له ان يتعلل عن فشله بهذه الحجة ، فطفق يعلن لكل من يلقاه ان زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل فى غرفة خانقة ، ومن حوله اسرة جائعة ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن ان يواتيه فى جو كهذا .. واخيرا ، ان القدر قد تآمر عليه منذ طفولته وان هذا كله واضح وضوح

النهار .. ولعله انتهى ـ هو نفسه ـ الى تصديق شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تغريه أيما اغراء ..

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث ـ على غير شعور ـ عن علة خارجية تلقى عليها تبعة كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل ما تعانيه من بؤس ..

ولم يكن يافيموف قادرا على ان ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجها لوجه ، فيعرف أنه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الابد ، ومنذ مدة طويلة .. كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته احلام الحمى .. كان فى حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة . واذا اتفق له أن تتفتح عيناه لحظة من الزمن ، فيستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى يشعر انه على شفا الجنون .. كان يستحيل عليه ان يتنازل عن احلامه التى كانت حياته نفسها خلال مدة طويلة . فظل يعتقد ـ حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ـ ان ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لاريب فيه ..

وكان فى الساعات التى يتضعضع فيها ايمانه هذا ، يندفع الى الشراب ، فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه . ولعله لم يكن يدرى الى اى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة . لقد كان وجودها حجة يتعلل بها عن فشله ، حتى لقد رسخ فى عقله اخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها السليم الا بعد أن يقبر هذه المراة التى ضيعته !

ولم تكن امى تفهمه .. فهى امراة حالمة ، حتى انها لم تستطع أن تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة

المرة . وقد اصبحت سريعة الاهتياج ، كئيبة المزاج ، كثيرة التانيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة فى تعذيبها ، وكانت لا تكف عن حثه على البحث عن عمل . الا ان عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ فى عقله من ان امراته هى السبب فى ضياعه .. كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة الانسانية ، ولا سبيل للعاطفة الى قلبه . فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ، ويقسم بصراحة قاسية انه لن يمس كمانه مادامت امراته على قيد الحياة . ولم تطق امى هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم انها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، واصبحت لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفزع . الا ان ذلك كله لم يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت ان تستضيف سكانا يطعمون عندها بأجر ، الا ان زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان وضعت الصحون فارغة امام هذين الشخصين اللذين تناضل من اجلهما .

وحين اتى « ب » لرؤيتنا ، كانت امى منهمكة فى غسل الثياب وترقيع الملابس العتيقة .. تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشها فى ظلمات غرفتنا الحقيرة .

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا . فما كان منه الا ان قال لعمى :

ــ اسمع . انك لا تقول الا هراء وسخفا .. فلا تمد

على مسامعى قصة موهبتك الميتة .. ما عملك هنا مادامت هى التى تطعمك ؟

فأجاب عمى :

ــ لا شىء ؟

الا ان «ب» لم يكن يتصور بعد ، كل ما تعانيه امى .. فكثيرا ما كان ابى يعود الى البيت فى صحبة اناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع فى الازقة .. ويالهول ما كان يجرى فى البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا . وصرح له ــ أخيرا ــ بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونة ، وقال له ــ بلا لف ولا دوران ــ انه لن يعطيه شيئا من المال ، مادام سيبدده فى الشراب . ثم طلب اليه ان يمسك بكمانه وان يسمعه عزفه ، ليحكم على قدرته . ومضى عمى لاحضار كمانه ، فانتهز « ب » هذه الفرصة ، ومد الى امى خلسة بعض المال ، الا ان امى لم تشأ ان تقبله ، فتلك هى المرة الاولى التى تتلقى فيها صدقة ! . . عندئذ مد «ب» المال الى انا ، فأخذته ، وانفجرت امى المسكينة باكية .. واتى عمى بكمانه ، الا انه طلب ان يقدم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع ان يعزف بدون ذلك .

وجىء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت اساريره وانتعش . ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :

— باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تاليفى .
ثم قال وهو يشير الى الدفتر :
— هل ترى ؟.. هذا كله من تأليفى !.. ولكنه من عجينة أخرى غير الحان « الباليه » التى تعزفونها .
وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا . ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمى ان يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عينها من دفتره.
وانزعج عمى من ذلك قليلا . الا أنه لخوفه من أن يضيع هذا الحامى الجديد ، نفذ ما طلب اليه. وأدرك «ب» عندئذ ان رفيقه القديم الذى يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان — فى الواقع — قد تمرن كثيرا أثناء ذلك. فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !
ليتكم ترون الفرح الذى فاض فى وجه امى المسكينة فى تلك اللحظة ! .. لقد أخذت تتأمل زوجها فى كثير من التباهى والاعتزاز . وسر الصديق الطيب «ب» سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد ان يجد لعمى عملا . وكانت له — فى ذلك الحين — علاقات بذوى الشأن ، فما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فاوصى بعمى خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه ان يصلح سيرته ويقوم سلوكه . واشترى «ب» لعمى ثيابا لائقة ، وقدمه لاشخاص من ذوى الشأن يتوقف عليهم ايجاد العمل الذى كان يريد ان يحصل له عليه . والحق ان « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، اما فى أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرض الذى تقدم به اليه

صديقه القديم .

وقد روى «ب» - فيما بعد - كيف كان يشعر بخجل شديد حين يأخذ عمى يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه ان يقطعها عنه . والحق ان « يافيموف » فهم انهم يريدون ان يردوه الى الطريق السوى ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب .. وأخيرا وجدوا له عملا فى جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لانه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، ان يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل . وقطع على نفسه عهدا ان لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وان يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم . الا ان حالة اسرتنا لم تتحسن بذلك . فان عمى لم يعط أمى من رواتبه قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كثيرا جدا .

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد «الكورس» وغيرهم ممن يستطيع ان يسيطر عليهم .

واستطاع ان يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم - منذ البداية - ان الناس لايفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وأن امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم - أخيرا - لا يفهم فى الموسيقى شيئا البتة !.. وكان يسخر

من جميع فنانى الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها . وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى . ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشىء .. وهكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة .. ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يبتكرها ثم يذيعها على أنها حقائق لا تقبل الشك . وانتهى ذلك كله الى أن تعكر الجو بين عمى وبين «ب» . ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر ، حتى اضطروا الى اخراجه . الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السرعة . وسرعان ما أصبح يرى من جديد ، بخرقة البالية القديمة ؛ بعد ان باع او رهن ملابسه المناسبة . واخذ يتردد هكذا على زملائه القدماء ، دون أن يعنيه ما اذا كان يسرهم أو يزعجهم ان يستقبلوا زائرا مثله . فكان ينقل اليهم الأقاويل ويروج الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته فى بيته للاعجاب بزوجته المجنونة .

وطبيعى أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدم لزميل له مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق اسوأ الاقاويل . ثم ان حديث يافيموف كان بارعا يفيض بالملاحظات المرة اللاذعة مما يفتن هذا النوع من المستمعين. وكانوا يعاملونه كمهرج شبه مجنون ، يحضونه على الثرثرة تزجية للوقت وملئا للفراغ . وكان يحلو لهم ان يستثيروا غضبه ، بالتحدث امامه عن عازف جديد وصل الى العاصمة. فسرعان ما كان يتضم وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هذا العازف الجديد من هو وماهى مواهبه . واعتقد أن ذلك الوقت هو بداية جنونه الحقيقى ، بداية الفكرة الثابتة التى حاصرت عقله واستبدت به، أعنى ايمانه بانه أول عازف على الكمان : فى بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ هو الذى خانه، وانه مضطهد مهان ، وانه ضحية أنواع شتى من المؤامرات ، وان الناس لايفهمونه ، وانه لذلك مجهول. وكانت هذه الفكرة الاخيرة تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبـون أن يعتقدوا أنهم مضطهدون مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسوا فى سرهم بعبادة عبقريتهم المجهولة. وكان «يافيموف» يعرف جميع العازفين من أولهم الى آخرهم ، ما من احد منهم يستطيع ان يضارعه. وكان الهواة الذين يعرفون لوثته يحبون أن يثنوا أمامه على عازف من العازفين ليحضوه على ابداء رايه . .

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف

خصمه الخيالى ! .. وكانوا كثيرا مالا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون انه ما من أحد فى العالم يستطيع ان يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا «كاريكاتوريا» فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشيء ، لأنهم يعرفون السم الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من احكام صائبة !.. واعتاد الناس أن يروه فى أروقة المسرح وكواليسه . وكان المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لاغنى عنه ، لقد أصبح « ترسيت »(١) هذا المكان .

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاثة سنين، الى ان سئمه جميع الناس ، حتى فى هذا الدور الاخير ، وعندئذ طرد نهائيا . واختفى عمى بعدئذ سنتين كاملتين اختفاء تاما ، ولم يعلم احد ممن يعرفونه الى أين مضى . الا ان « ب » صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت شفقته ، فتغلبت الرحمة على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا ان عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبعته المشوهة الرثة على رأسه حتى غطت عينيه ، وتابع سيره . وفى صباح احد الاعياد جاء خادم «ب» يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته . فخرج «ب» للقائه .

---

(١) من شخوص الميثولوجيا اليونانية .. كان احد اليونانيين الذين اشتركوا فى حصار طروادة ، وكان ابشع رجل فى الجيش ، جبانا ثرثارا ، يشتم جميع الناس ، ويهجو قادته . وظل « ترسيت » شخصا اسطوريا يرمز الى الجبن والوقاحة (المترجم) .

كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلما رأى «ب» خر راكعا حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذله ، وتمتم بضع كلمات، وابى ان يدخل . وكان لسان حاله طبعا يقول : ليس من حقنا نحن أهل الشقاء ان نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم . وكل ما يسمح لنا به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : نتملق ونحن على عتبة الباب . ونخر راكعين ثم ننصرف . ذلك كان سلوكه المزرى . ولم يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، اى يوم وقعت الواقعة التى اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة . لقد كانت فاجعة فظيعة . انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ، وسأروى لكم الآن كيف وقعت . الا انه لابد لى ، قبل كل شىء ، من أن أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الى ذلك الرجل الذى خلف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى سبب موت أمى المسكينة .

- ٢ -

لم تبدأ ذكرياتي المتأخرة جدا، في نحو التاسعة من عمري. لا ادري كيف يمكن ذلك . الا ان كل ما انقضى قبل هـذا العهد لم يدع في نفسي اي اثر يمكن ان اذكره الآن . ولكنني في مقابل ذلك استطيع ان ارى بوضوح تام كل ما وقـع بعد الثامنة والنصف من عمري ، يوما بيـوم ، دون أي انقطاع ، كأنه وقع كله بالامس . صحيح انني استطيع ان اتذكر بعض الحوادث التي سبقت هذه المرحلة، الا ان ذكرياتي عن هذه الحوادث اشبه بأحلام مريض : مازلت ارى - مثلا - سراجا صغيرا يمص في ركن مظلم الى جانب ايقونة قديمة. ومازلت اعلم انني كنت ذات يوم في الشارع ، فدهسني حصان ، وقيل لي انني بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال ثلاثة اشهر . ومازلت اذكر ايضا انني اثناء ذلك المـرض استيقظت ذات مرة مذعورة ، وكنت انام مع امي على فراش واحد ، وان اوهامي والسكون وقرقعة فأر في ركن الغـرفة ارعبتني اشد الرعب ، فقضيت بقية الليل ارتعد منكمشة على نفسي تحت الغطاء ، دون ان اجرؤ على ايقاظ امي (وهذا ما يجعلني افترض انني كنت اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة !) .. الا انني منذ اللحظة التي شعرت فيها بذاتي ، اصبح نموي سريعا وعجيبا ، حتى انني احسسـت بكثير من المشاعر التي ليست من الطفولة في شيء . لقد اضاء

كل شيء أمام نظرى ، وسرعان ما أصبح كل شيء مفهوما .
ان اللحظة التى بدأت فيها ذكرياتى الحقيقية قد تركت فى نفسى أثرا حادا من الألم ، وكان هذا الأثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتى التى قضيتها بين عمى وامى ، اعنى على طفولتى كلها ، لونا قاتما غريبا !

يخيل الى الآن اننى كانما استيقظت فجأة من نوم ثقيل ، استيقظت فى غرفة كبيرة منخفضة السقف ، قذرة . تفوح منها روائح الاختناق ، جدرانها ملطخة بلون رمادى قذر ، وفى احدى زواياها تنتصب مدفأة روسية قديمة . والنوافذ تطل على الشارع ، او بالاصح على سطح البيت المقابل . وهى جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ، وحوافيها من البعد عن أرض الغرفة بحيث احتجت ، فيما أذكر ، الى ان اضع كرسيا والى ان اضع فوق الكرسى مقعدا حتى استطيع أن اصل الى هذا المكان الذى كنت احب ان اجلس فيه حين لا يكون فى البيت احد . لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة . كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع اصبح مزقا مغبرة باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب ابيض وكرسيين ، وعلى سرير أمى ، وخزانة صغيرة ، واخرى متداعية اسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ، وحاجز من ورق تمزق .

انى اتذكر ذلك المساء ، عند الشفق . كان كل شيء قد تبعثر على ارض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، اوانينا التى

من خشب ، زجاجة مكسورة ، واشياء أخرى ايضا .. وأمى تبكى وهى ترتعد من شدة الهيجان ، وعمى جالس فى احد اركان الفرفة ، وهو يرتدى ردنجوته السرمدى . وكان عمى برد على كلام امى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب امى .

وفجأة تعود المقشة والاوانى الى رقصها العنيف . وأخذت اصرخ غارقة فى الدموع ، واندفعت الى امام احاول ان اباعد بينهما . **كنت فى حالة ذعر هائل . واحطت عمى بذراعى أريد ان اغطيه بجسمى لاحميه . كنت اعتقد ، لا ادرى لماذا ، ان أمى هى المخطئة فى غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب . ووددت لو اتشفع له ، وان احتمل عنه كل قصاص.**

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يتراءى لى انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها انا .

وشدهت أمى فى اول الأمر ، ثم أمسكت بيدى وجرتنى الى ما وراء الحاجز . واصطدمت يدى بالسرير فآلمتنى ألما شديدا ، الا ان الخوف كان أشد من الألم ، فلم احرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهى اية علامة من علامات الألم .

وما زلت اذكر أن أمى خاطبت ابى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهى تشير الى باصبعها (سأسميه بعد الان أبى ، فى قصتى هذه ، لأننى لم أعلم إنه ليس ابى الا بعد مدة طويلة من ذلك) . ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وانا أرتجف من القلق ، ان احرز كيف سينتهى الأمر .

واخير هدأت المشاجرة ، وانصرفت امى . عندئذ نادانى ابى فقبلنى ، وداعب راسى ، وحملنى الى ركبتيـــه بينما كنت اشد جسمى اليه برفق وحب .

كانت تلك فيما اعتقد أول مداعبـــة ابوية . ولعلها هى السبب فى أن ذكرياتى اصبحت منذ تلك اللحظة واضحـة هـذا الوضـــوح . ولاحظت بجلاء تام اننى اكتسبت عطف أبى بالتحـــزب له . ولعل هــذه هى المرة الاولى التى قام فيها فى ذهنى أن امى كانت تجعل حياة ابى قاسية شاقة . ومنذ استقرت هــــذه الفـكرة فى نفسى أصبحت تعذبنى وتزيدنى عذابا يوما بعد يوم .

وشعرت نحو أبى ، منذ تلك اللحظـــة ، بحب ليس له حـــدود ، حب غريب ليس من الطفـــولة فى شىء . حتى لأستطيع أن اقول ان هذه العاطفة تشتمل على شىء مما تشعر به الأم نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن مضحكا أن توصف عاطفـــة طفل بمثل هـــذا . كان يتراءى لى أن ابى حقيـــق بالرثاء ، معـــذب ، مضطهد ، وأن من الظلم أن لا احبـــه حبا قويا ، وأن لا اواســـيه ، وان لا اظهر له اية عاطفة ، وأن لا أهب له نفسى مخلصة صـــادقة . ومع ذلك فاننى لا أعرف الآن لم كانت الفكرة التى استقرت فى ذهنى يومئذ هى أن أبى اشـــقى الناس واكثرهم عذابا . ما الذى الهمنى هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، انا الصغيرة ، ان انفذ الى اعماق نفسه فأدرك الآلام التى كان يعانيها ثمرة لاخفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه الآلام ، وان كنت قد

بدلت صورتها طبعا ، وجعلتها فى مستوى خيالى . والى الآن لا ادرى من اين اتانى هذا الحدث . **لعل قسوة امى الشديدة على هى التى دفعتنى الى التعلق بابى ، تعلقى بانسان يعانى مثل الشقاء الذى اعانيه ، وفقا للصورة التى رسمتها فى نفسى عنه .**

رويت الى الآن يقظتى الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول فى حياتى . وقد جرحنى هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم اخذ نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، واصبحت لا أكتفى بالمشاعر التى تصلنى من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، والاحظ . فاذا كل ما يحيط بى يرتسم فى ذهنى وفقا للصورة الخيالية التى كان يكررها ابى ، والتى كان لابد أن اعدها الحقيقة الصافية . وادركت أشياء كثيرة عجيبة . ادركت مثلا (ولا افهم الآن كيف تم لى ذلك) اننى اعيش فى اسرة عجيبة ، وان ابوى لا يشبهان فى شىء الناس الذين كان يتفق لى أن القاهم . **وكنت اتساءل : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر ابوى ؟ لماذا أرى فى وجوههم فرحا .. على حين انه ما من احد يضحك يوما فى بيتنا ، فى ركننا النائى ، ما من احد يعرف الفرح سبيلا الى نفسه !؟ »** لست ادرى الآن ما الذى كان يدفعنى ، أنا الطفلة التى لم تتجاوز التاسعة من عمرها ، الى ملاحظة الناس فى مثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع الى كل كلمة يقولونها فى مثل هذه المرارة اللاذعة . حين كنت القاهم عرضا على سلم البيت ، أو فى الشارع ،

او حين كنت امضي الى احد الحوانيت ، ملفعة بثوب أمي ، لاشتري ببضعة قروش قليلا من السكر او الشاي او الخبز ؟ .. وفهمت — لا ادري كيف — ان شقاء لا يحتمل يختبيء في بيتنا ، في هذا البيت الحقير . وكنت اعصر ذهني باحثة عن علة ذلك ، ولا ادري ما الذي ساعدني على حل اللغز على النحو التالي : قلت في نفسي ان امي هي المسئولة ، انها سبب شقاء أبي . وهذا يضطرني الى التساؤل مرة اخرى : كيف امكن ان ترسخ هذه الفكرة الشيطانية في نفسي . **ومهما يكن من امر فان تعلقي بابي اخذ يزداد ، واخذ يزداد كرهي لامي ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لي الما عميقا حتى الآن .**

وهذا حادث آخر عجل تعلقي بابي أكثر من الحادث الاول : ذات مرة ، في نحو الساعة التاسعة من المساء ، ارسلتني أمي الى السوق لشراء قليل من الخميرة ، ولم يكن أبي في البيت . ووقعت في الشارع وانا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كل ما كان يحويه الفنجان . وتصورت ، اول ما تصورت ، جام الغضب الذي ستصبه أمي على راسي ، وشعرت الى جانب ذلك بالم فظيع في ذراعي اليسرى ، ولم استطع ان انهض على قدمي ، وتجمع حولي « المتفرجون » . وحاولت امراة أن تنهضني ، ومر صبي وهو يركض فلكمني على راسي ومضى ، وانهضوني اخيرا ، فلملمت قطع فنجاني ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا اكاد اقوى على السير . وفجاة لمحت أبي . لمحته في وسط جمهور تجمع

امام البيت الجميل الذى يقابل بيتنا . كان هـــذا البيت الذى يقطنه اناس أغنياء مضاء على نحو رائع . وامام باب البيت كان يقف عدد من العربات . ومن خلال النـــوافذ كانت تخرج اصـــوات موسيقى . وامســكت بطرف ثوب أبى ، واريته فنجانى المكســـور ، وذكرت له ، وانا ابكى ، اننى خائفة من العودة الى البيت . لا ادرى الآن لم كنت على ثقـــة من انه سيصحبنى وسيدافع عنى ، لا ادرى من اين أتانى هـــذا اليقـــين ، ومن ذا الذى أوحى الى بانه سيحمينى ، وأنه يحبنى أكثر مما تحبنى امى بكثــير . لا ادرى كيف اتجهت اليه دون ان يساورنى اى خوف . وامســـك ابى بيدى ، واخذ يواســـينى . ثم قال لى انه سيرينى شيئا . ورفعنى بين ذراعيه . لم استطع ان ارى شيئا ، لانه شد ذراعى المجروحـة ، وآلمنى الما هائلا . الا اننى لم أصرخ ولم اتوجع ، لأننى كنت لا أحب ان ازعجه فى شىء . وسألنى ملحا عما اذا كنت اري شيئا . وحاولت ، جهـد اليائس ، ان اجيبـه بما يحب ، فقلت له اننى ارى ستائر حمرا . وحين اراد ان يحملنى الى الجانب الآخـر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيتنى أبكى فجأة على الرغم منى ، واخذت اتوســـل اليه ، وقد احطت عنقـــه بذراعى ، ان يصـــعد بى الى البيت بسرعة . اننى اتذكر الآن ان مداعبات ابى فى تلك اللحظة كانت تؤلمنى ،**فاننى لم احتمـــل ان يحبنى ويداعبنى احـد هـــذين اللذين اود ان أحبهما كل الحب ، فى وقت اخاف فيه الآخر واخشى**

أن امثل بين يديه . الا ان أمي لم تكد تغضب ، وامرتني أن أمضي الى فراشي وأنام . واذكر أن الم ذراعي اخذ يشتد ويشتد ، حتى سبب لي حمى شديدة . ورغم ذلك كانت سعادتي عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت طوال الليل بالبيت الذي يقابل بيتنا وبستائره الحمر .

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل في خاطري حين استيقظت في صباح اليوم التالي . وما كادت أمي تنزل الى ساحة المنزل ، حتى تسلقت حافة النافذة لأتأمل ذلك البيت مرة اخرى ، وكنت افكر فيه منذ زمان طويل ، وكنت أحب ان انظر اليه في المساء خاصة ، حين تضيء الأنوار في الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الأشعة الخاصة التي تسقط عليها من خلال نوافذه العالية المغلفلة بالستائر الارجوانية ، والمضاءة اضاءة قوية .

وامام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة . كان كل شيء يثير في حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ، القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات . كان خيالي يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجو الاساطير . وفي ذلك اليوم على وجه الخصوص ، بعد لقائي أبي على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت في نظري فتنة وسحرا . وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر في ذهني الهائم . ثم اني أعيش بين اناس شاذين كأبي وامي ، قد أصبحت شاذة عجيبة ، انا الأخرى ، ما من ذلك مهرب .

من ذلك ان رؤية امي وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت اسمعه من تقريعها ابي دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالي ويصدعه .
فكنت أتساءل ، بالرغم مني : لماذا لا يساعدها أبي ابدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمي أيقظت في نفسي هذه الفكرة . وكانت لي مفاجأة كبيرة يوم فهمت ان ابي شخص « موهوب » ، أنه « فنان » . ورسخت هذه الكلمة في ذاكرتي ، وسرعان ما استقر في ذهني ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس . لعل سلوك ابي هو الذي انتهى بي الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتها ، هي التي رسخت في نفسي هذه الفكرة . ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبي ذات يوم بحرارة قوية ورسخت في ذاكرتي لا تبرحها ، قال :
سيأتي يوم لن يكون هو فيه انسانا رثا بل سيدا محترما ورجلا غنيا ، سيأتي يوم يبعث فيه بعثا جديدا ، وهو اليوم الذي تموت فيه أمي ! .. اذكر انني ما ان سمعت هذه الكلمات حتى انتابني في اول الأمر رعب شديد ، ولم استطع ان ابقى في الغرفة . فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهي بين يدي ، واخذت أشهق وانتحب . ثم لما فكرت في الأمر مليا ، وهب الخيال الى نجدتي ، وجدتني آلف رغبة أبي الكريهة هذه . وكنت ، من جهة اخرى ، لا استطيع ان اظل مدة طويلة امام سر لا يمكن فهمه ، وكان لابد لي من أن استقر

على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد (لا ادرى كيف تم ذلك) انه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقير ، ويمضى بى الى مكان آخر . أما أين هو المكان ؛ فذلك ما لم أستطع أن اتخيله بوضوح ، حتى اللحظة الأخيرة . والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سنمضى اليه (وكنا سنمضى اليه من أجلى انا طبعا) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما . لقد خلقت من أحلامى الخيالية واقعا حيا . وتراءى لى اننا سنصبح أغنياء فى طرفة عين ، فما أحتاج ان اذهب الى شراء بعض الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسى ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بى كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الارض ، واتعرض لعقاب أمى القاسى . وتراءى لى أن أبى سيشترى لنفسه ثيابا جميلة . وتخيلت أننا سنمضى بعد ذلك الى البيت الذى يقابل بيتنا ، ونستقر فيه . نعم ، ان البيت الفنى ذا الستائر الحمر الذى رفعنى أبى أمام نوافذه ذات يوم ليرينى ما بداخله ، هب كذلك لنجدة خيالى . وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث فى حناياه فى عيد دائم ، فى سعادة أبدية . ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور فى شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وارى الزوار فى أجمل الحلى ، واسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال

النوافذ ، واتأمل الظـلال التى تتخـاطر على السـتائر ، واحاول أن أحرز ما يعمله الناس فى هـذا البيت الذى كان فى نظرى جنة، وعيدا أبديا ،وصرت أحتقر مسكننا الوضيع، وأحتقر الخرق الباليه التى ارتديها .

***

وذات يوم غضـبت أمى فأمرتنى ان انزل عن النافذة ، حيث اطلق لأحلامى العنـــان ، على عادتى . فما لبثت أن اعتقدت ان أمى انما تمنعنى من التفكير فى هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد ان تحول بيننا وبينه . وظللت طوال السهرة أرقب امى بحذر .

وكيف أمكن ان أكون فى مثل هذه القسوة على انسان لقى من العذاب الأبدى ما لقيت أمى ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انهـا كانت تعيش فى جحيم ، اليـوم فقط أدرك ، وقلبى يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة . على اننى فى تلك الفترة القاتمة من طفولتى الغريبة ، فى تلك الفترة من حيـــاتى التى كنت أنمو فيها نموا غير طبيعى ، كثيرا ما كان ينقبض صدرى ألما ورحمة ، كثيرا ما كان يثور ضميرى كلماتراءى لى اننى أظلم أمى . الا ان القلق والخوف والريبـــة ظلت اقوى من كل شىء آخر . والحق اننا كنا بعيدتين احدانا عن الأخرى . فلست أذكر أننى تمنيت فى يوم من الأيام ان اخلو بها . لذلك كانت أية ذكرى من ذكرياتى الآن تسـمم نفسى وتجعلنى أرتعد من شدة الألم .

اذكر مرة (ولا شك ان ما سأرويه أمر مبتذل ، الا ان ذكريات من هذا النوع هى التى تعاودنى الآن وتعذبنى) أن أمى أرادت ذات مساء ، اثناء غياب أبى ، أن ترسلنى الى الحانوت اشترى لها قليلا من الشاى والسكر . ولكنها قبل أن ترسلنى أخذت تفكر طويلا ، ولم تعزم أمرها ، وجعلت تعد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذى كانت تملكه قطعا نقدية صغيرة . واعتقد أنها ظلت تعد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن تفرغ من ذلك . لقد كانت المسكينة تصاب فى بعض اللحظات بنوع من التبلد ، نتيجة لما كانت تعانيه من آلام . واذا صدقت ذاكرتى ، فقد تمتمت أمى لا ادرى بماذا ، دون ان تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية كبيرة . كأن الكلمات كانت لا تواتيها . وكانت شفتاها دكناوين ، ووجنتاها كابيتين مكفهرتين ، ويداها مرتجفتين . وكانت لا تنى تهز رأسها ، على عادتها حين تتخذ قرارا .

واخيرا قالت وهى تنظر الى : « كلا .. مستحيل .. خير لى أن أنام . أليس كذلك ؟ هل تحبين ان تنامى يا نيتوتشكا ؟ » . ولم اجب . عندئذ رفعت أمى رأسى ، ونظرت الى فى رفق ولطف وحب ، واشرقت فى وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتنى الا وقلبى يخفق . لقد نادتنى بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها فى تلك اللحظة احبتنى حبا خاصا ، وكانت هى التى تخيلت فيما مضى ان تغير اسمى ، وهو آنا ، فتناديني بهذا الاسم المصغر الذى يشير الى الحب ، وحين كانت تنادينى بهذا

الاسم المصغر كان ذلك يعنى انها على استعداد لان تلاطفنى وتداعبنى . وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتهيت ان اطوق عنقها بذراعى ، وابكى معها .

وداعبت راسى طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلى دون ان تشعر ، وظلت تكرر : «صغيرتى آنا ، حبيبتى نيتوتشكا» .

وتفجرت من عينى الدموع ، الا اننى تجلدت لأحبسها .. كابرت جهدى حتى لا أدعها ترى انفعالى ، رغم ما يسببه ذلك لى من الم .

كلا ! لا يمكن ان يكون هذا مجرد قسوة منى . لا يمكن ان اشعر نحو امى بالعداوة لمجرد قسوتها على ! لقد كان يدفعنى الى كرهها هذا الحب الموحد الشديد الذى اشعر به نحو ابى . لقد كان يتفق لى ، فى بعض الاحيان ، ان استيقظ من نومى ليلا ، فى الركن الذى انا فيه ، على حصيرتى الصغيرة ، تحت غطائى الرقيق ، وقد تملكنى شعور مخيف . كنت ما زلت اتذكر فى ذلك الحين ، وانا شبه نائمة ، اننى قبل هذه المدة بقليل ، حين كنت اصغر من ذلك ، كنت انام مع امى ، وكنت أقل خوفا حين استيقظ ، وكان يكفينى ان اشد نفسى اليها ، وان اغمض جفنى ، وان أعانقها بقوة ، حتى انام على الفور . ثم اننى كنت أشعر اننى ، رغم كل شىء ، لا استطيع ان امنع نفسى عن حب امى فى السر . وادركت بعد ذلك ان كثيرا من الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة بشكل فظيع ، وانهم اذا احبوا شخصا احبوه وحده ولم يعبأوا بمن عداه . كذلك كانت حالى أنا .

وكان يسيطر على منزلنا الحقير ، فى بعض الاحيان ، صمت رهيب يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام ابى وامى مشاجراتهما . كنت أعيش بينهما حياتى كلها دون ان أنبس بكلمة ، غارقة فى افكارى وحزنى ، ساعية وراء خيالات احلامى . وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم مايكن كل منهما للآخر ، وافهم هذا البغض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وافهم هذا العار اللذين يعيشان بينهما تلك الحياة الفاسدة فى كوخنا الحقير .

وطبيعى ان أفسر ذلك كله على النحو الذى استطيعه ، ما دمت أجهل اسبابه ولا اعرف نتائجه . لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة ان اظل قابعة فى ركنى ساعات كاملة اتأملهما . وكنت احاول وأنا اطوف بصرى فى وجه أبى ان احرز ما يفكر فيه ، وما يشغل باله . وكان وضع امى يدهشنى فى بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير فى الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهى ، وكان يتفق لها ذلك حتى فى الليل ، حين يمضها الارق ، وكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها ، وتارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها يأس رهيب ، وفى بعض الاحيان تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون ان تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها فى بعض الاحيان . لقد كانت تعانى مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما .

وازدادت وطأة وحدتى وصمتى حتى أصبحت لا اجرؤ على ان اخرج منهما . وانقضت سنة كاملة على تيقظ

شعورى ، وعلى استرسالى فى التاملات والأحلام ، وعلى تمزقى صامتة بين مطامح غامضة نشأت فى بفتة . واصبحت متوحشة كأنما انا عشت فى وسط غابة . واخيرا انتبه أبى الى وضعى هذا ، فاستدعانى وسألنى لم أثبت فيه نظرى الى هذا الحد . ولا ادرى الآن بم اجبته . الا انه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدنى ، وهو يداعب يدى ، ان يحضر لى كتاب الابجدية فى الغد ، وأن يعلمنى القراءة .

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون ان أدرك ما هى الابجدية على وجه الدقة . وفى اليوم التالى بدأ أبى يعلمنى القراءة . وفهمت ما يطلب الى فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى ان ذلك يسر ابى . وكانت تلك اسعد مرحلة فى طفولتى البائسة . وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب رأسى ويقبلنى ، كنت أطفق ابكى من شدة الفرح .

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شىء . واصبحت أجرؤ على أن اكلمه ، واصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا خلال ساعات طوال . وكان يتفق لى ان لا أفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت اتظاهر بفهم كل شىء ، خشية ان يظن اننى اضيق بحديثه . واعتاد ان يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل ابجديتى والحق به . فكان يجلسنى امامه على المقعد ، حتى اذا فرغنامن الدرس اخذ يقرأ لى بصوت عال . وكنت

لا افهم شيئا مما يقرأ . الا اننى كنت اضحك بدون انقطاع ، لاعتقادى بأن ذلك يسره سرورا عظيما . ولم اكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه ان يسمعنى مغرقة فى الضحك . وفى ذات مساء ، قص لى ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن . وكانت تلك اول حكاية اسمعها . وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر . على ان خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتتن ويسحر . وكل مافى الامر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جد ، وخلقت من الوهم واقعا . فاذا البيت ذو الستائر الحمر يتراءى لى ، لا ادرى كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص لى الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا ادرى الى اين ، واذا انا اعيش مع احلامى الرائعة وقد حم راسى وغلى برؤاه العجيبة المستحيلة . وتداخل هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث ان كون سديما لا شكل له ، سديما جعلنى ، خلال مدة من الوقت ، أفقد صوابى وافقد شعورى بالواقع ، واعيش بين السحب .

واحرقتنى رغبة قوية فى أن أسأل أبى عما يخبئه لنا المستقبل ، عما ينتظر هو نفسه ، عن الأمكنة التى سيقودنى اليها ، عن الموعد الذى سنترك فيه بيتنا الحقير . كنت واثقة ، من جهتى ، أن هذا كله لن يتأخر كثيرا ، ولكن كيف وعلى اية صورة ؟ عبثا حاولت أن ابحث عن جواب على هذا السؤال المرهق . وكان يتراءى لى فى بعض اللحظات ،

ولا سيما اثناء السهرة ، أن ابى سيطلب الى فجأة ، بحركة خفية ، ان امضى الى الممر ، فاذا انا انهض خلسة ، دون ان تلاحظ امى ذلك ، فأتنـــاول ابجديتى عابرة ، واتأبط اللوحة (وهى صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدليــة على جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا اول له ، وكنت قد عزمت على ان احملها معى) ، ثم نمضى دون أن نحدث ضجة ، نمضى الى غير رجعة ، لا الى البيت ولا الى امى . وذات مرة ، لم تكن أمى فى البيت ، فأردت انتهاز لحظــة رايت أبى فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد ان يحتــى قليلا من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حــول هذا الموضوع الحبيب الى . وسرعان ما ظفرت باضحاكه . عندئذ احطت عنقه بذراعى ، وشددت نفسى بقوة اليه ، ورحت اسأله (وقد اخذ قلبى يخفق من شدة الخوف مما سأقوله من امور سرية رهيبة) رحت اسأله فى تمتمة وفى كلام متهدج : عن المكان الذى سنمضى اليـــه ، وعن موعد السفر هل هو قريب ، وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذى الستائر الحمر هل نسكنه ؟

ــ اى بيت ؟ اى ستائر حمر ؟ ماذا تقولين ايتها الحمقاء الصغيرة ؟

وشعرت برعب لم اشعر به من قبل ، واخذت اشرح له اننـــا لن نبقى هنا فى هذا البيت الحقير بعد موت امى ، وانه سياخذنى بعد موتها الى مكان آخــر لنعيش فيه سعيدين ، غنيين . واكدت له اخــيرا انه هو الذى وعدنى

بذلك . وكنت على يقين ، وانا أقول له هذا الكلام ، من ان ابى قد حدثنى عن هذه الاشياء ، أو أننى قدرتها تقديرا على الاقل .

واردف ابى يقول :

ـ امك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الى مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه فجأة .

ثم وبخنى ، وظل مدة طويلة يقرعنى ويقول اننى طفلة بلهاء لا استطيع ان افهم شيئا .

لست اتذكر الآن الفاظ التأنيب التى صبها على راسى ، ولكن استياءه كان شديدا جدا .

على اننى لم افهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذى شعر به حين ادرك أننى اصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتى الخاصة عبارات البغض التى كان يكيلها لأمى .

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة فى امى ، فمما لاشك فيه أن كلامى قد شدهه . اما انا فاننى لم استطع ان افهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت ان ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لى ، أنا الطفلة الغبيــة ، ان اتحدث عنه ولا أن افكر فيه . على اننى ان لم افهم شيئا من غضــب ابى ، فقد شـعرت اننى اهنت امى ، ولو ان شعورى هذا كان غامضا مبهما ، حتى ان الخوف والارتياع

بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب أظافره فى أعماق نفسى .
وحين رآنى أبى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح
دموعى بكمه ، وامرنى ان أكف عن البكاء . وبقينا بعد ذلك
جالسين مدة من الزمن صامتين ، وكان باديا على وجه
ابى انه يفكر ، وقد تقضبت أساريره . ثم اخذ يتكلم من
جديد ، الا ان كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم
ما حاولته من تركيز انتباهى ، والكلمات القليلة التى بقيت
فى ذاكرتى الى الآن من حديثه تجعلنى استنتج انه تحدث
عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن ان الناس
لايفهمونه ، الخ . ومازلت اذكر انه سألنى هل أفهم مايقول ،
فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه
انه موهوب فقلت « موهوب » .. وكاد يبتسم لدى سماعه
هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه رأى من المضحك أن يتحدث
معى فى موضوع خطير فى نظره الى هـذا الحد . وانقطعت
محادثتنا بوصول كارل فيودروفتش . وما لبثت ان استعدت
مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى وهو يشير اليه :

– هل ترين ؟ هذا كارل فيودروفتش ! انه لايملك ذرة
من موهبة !

كان كارل فيودروفتش انسانا عجيبا . مازلت اتخيله
كأننى رأيته بالامس . (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم
فى حياتى حتى ذلك الحين كانوا قليلين) . وكان الرجل
ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة فى الانتساب الى
هيئة الباليه ببطرسبرج . الا ان رقصـه كان من الرداءة

بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهمـا يكن ثانويا ، على انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرسان فيرون مثـلا ، الذين يبلغ عـددهم العشرين وعليهم أن يصرخوا معا فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خناجر من ورق مقوى : « لنمت فى سبيل الملك » . ولكن ما لاشك فيه انه ليس على وجه الارض ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على ان أفظع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع ان ينخرط فى هيئة الباليه . وكان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه . وقد تصادق الرجـلان حين كانا يعملان معا فى المسرح . ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا الممثل البسيط أبى أبدا . فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعان معا على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر . ولقد كان هذا الالمانى أكثر النـاس عاطفية ، فكان يحمـل لابى أعنف مشاعر الصداقة واخلصها . الا ان ابى لم يكن يقدره كثيرا ، ولو انه كان يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره فى ذلك الحين . ثم ان ابى كان يرفض ، لتعصبه أن يسلم بأن الرقص فن من الفنون . وكان ذلك يجرح كبرياء الالمانى المسكين الى حد البكاء . فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخـذ ابى يسخر منه ، ويستهزىء بفنه ، ويمس بذلك وترا حساسا فيه . ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيـل عن

صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق احدهما للآخر ، واللذين كانا اذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العاثر وعلى ان الناس لا يفهمونهما !

وكنت اذا رايتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب - أنا أيضا ، دون سبب يدعو الى ذلك . وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما . لقد كان الالمانى يخافها خوفا كبيرا ، حتى انه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ، الى ان يخرج أحدنا ، فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار لبه من الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة . وكان يأتينا دائما بقصائد ألمانية تنال اعجابه وتستفز حماسته ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لنفهمها . وكان ذلك يفرح أبى كثيرا ، ويجعلنى اضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا . وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى اعجبا به كلاهما ايما اعجاب بل افتتنا به ، حتى انهما كانا كلما التقيا بعد ذلك يعيدان قراءته . وكان هذا الكتاب ، فيما اذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير . وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى أننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة اتعرف عليه بلا عناء . وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جريتارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : «ان الناس يعرفون قدرى» ،

وفى موضع يقول : « ليس لى من موهبة » ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » . وخاتمة الدرامة محزنة . ولا شك ان هذا الكتاب ليس له من قيمة . غير أنه - وتلك هى المعجزة - كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة . وكان كارل فيودورفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الى (وكان يناديني « مادموازيل ») والى ابى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه . ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : هل هو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم انه ليس بموهوب ؟ **وكان ابى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الى بعينيه خلسة لينبئنى بانه سيسخر من الألمانى ، وبأن الامر سيكون مضحكا جدا . وكان تنتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى الى بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك .** وما زلت حتى الآن لا استطيع ان أتذكر هذه المشاهد دون أن اضحك . وما زلت أرى المسكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامى : انه قصير القامة ، نحيل مفرط فى النحول . مبيض الشعر ، انفه كبير احمر اشبه بمنقار الغراب ، اما ساقاه فمقوستان على نحو بشع جدا ، وكان مع ذلك يتباهى بشكلهما الجميل ، حتى لقد كان يرتدى سروالا

ضيقا يلتصق بهما ابرازا لمفاتنهما . وحين كان يتجمد على حركة اخيرة ، مادا يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان ابى يظل صامتا لحظـــة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رأيه . الا انه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص فى وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا ان يحافظ على توازنه فى كثير من العناء . واخيرا يلتفت أبى الى فى هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعونى الى ان اكون شاهدا على حكمـه الصادق الذى لا تحيز فيه ، وتلك هى اللحظة التى كان فيها الراقص يثبت بصره فى انا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعانى الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له ابى ، متظـــاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

— كلا ، يا كارل فيودوروفتش . لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا انه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعـة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه فى المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمـــنا فى هذه المرة الجديدة . ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة . وكان فى بعض الاحيان لفرط حماسته يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصـطدم بالسقف ، ويحدث له الما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى ، ثم يتجمد مرة أخرى فى وضع من الاوضاع ، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا فى رقصته هذه المرة . الا

ان أبى كان لا يعرف الرحمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة التى أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ـ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ما عملت !

وكنت عندئذ لا استطيع ان اضبط نفسى ، فأطلقها قهقهة مجلجلة يرد عليها أبى بقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لابى وقد فاضت عيناه بالدموع وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

ـ انك لست بصديق .

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعود أبدا . الا أن هذا النوع من المخاصمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدرامةالتى يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الساذج كارل فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين ، بدلا من أن نسخر منه .

وفى ذات مرة أرسلتنى امى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ، وعدت وانا امسك بالنقود الصغيرة التى ردها لى البائع ، فلقيت ابى هابطا على السلم ،

فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع اعجز من ان لا ابتسم له . الا انه وقد انحنى على بريد تقبيلى ، لمح النقود التى اقبض عليها بيدى ــ (نسيت أن اذكر اننى كنت تعودت ان اقرأ فى وجهه ما يدور فى خلده ، حتى اصبحت ادرك رغباته من اول نظـرة . وكنت اذا رأيته حزينا ينهشنى الالم نهشا . وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يستطيع أن يحتسى قليلا من الخمر ، بعد ان اصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها) ــ فى تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا . كانت نظرته قاسية ، وكانت عينـاه متجمدتين ، حتى انه لم يرنى فى اللحظة الاولى . الا انه حين رأى النقود البراقة التى امسكها بيدى ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده لياخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه . واضح ان صراعا قام فى نفســـه . وكأنما سيطر اخيرا على نفسه ، فأمرنى أن اصعد ، وهبط هـو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، ونادانى .

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع .

ــ اسمعى يانيتوتشكا . أعطينى هذه النقود . وسأردها اليك فيما بعد . ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما اوجست انه سيفعـل ذلك . الا أن صـورة الغضب الذي ستصبه امي على رأسي ، وخوفي ، ولاسيما

خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان امد اليه المال . ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

ـ على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ..

ـ بل خذ يا بابا ، ساقول لامي انني أضعته ، ساقول ان أبناء الجيران اختطفوه منى !

ـ حسنا ، حسنا . كنت أعرف ذلك ، اعرف انك أبنة طيبة ذكية .

قال ذلك ، دون أن يكتم فرحه حين احس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، واضاف :

ـ انك ابنة صغيرة رائعة ، انت ملاك صغير . انت ملاكى الصغير . هات يدك الصغيرة ..

وتناول يدى يريد تقبيلها ، الا اننى انتزعتها منه بقوة . واجتاحنى شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار ، اخذ يعذبنى !.. فتركت ابى دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ، كأنما يدفعنى الخوف دفعا . ودخلت وقد تملكنى ذعر مجنون . كان خداى كأنهما من جمر ، وكان قلبى يخفق خفقانا عنيفا . لم يكن شيء من هذا قد وقع لى قبل الآن . ومع ذلك زعمت لامى ، بجراة ، ان القطعة النقدية سقطت من يدى فى الثلج ولم استطع ان اجدها . وكنت أتوقع ان تضربنى امى ، الا انها لم تضربنى ، ولو انها استاءت استياء شديدا ، أخرجها عن طورها فى اول الامر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تقرعنى وتؤنبنى ، لكنها ما لبثت

ان استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلـــومنى على اهمالى ، وقالت اننى لو كنت احبها حقا لعـــــرفت كيف احافظ على دراهمها . وآلمتنى هــذه الملاحظــة اكثــر من الضرب . لقد كانت امى تعرفنى حق المعرفة ، فلاحظت ان حساسيتى اصبحت مرهفة الى حد مرضى ، وانها ان لامتنى على هذا النحو المرير ، واتهمتنى بأننى لا احبها ، كان ذلك أوقع فى نفسى ، واولى بأن يجعلنى فى المستقبل اكثر تيقظا وانتبـــاها .

وعند هبوط الليل ، فى الساعة التى يعود فيها ابى الى البيت ، مضيت الى الممر انتظره على عادتى . كنت فى هذه المرة مضطربة اشد الاضطراب . كانت الندامة تملأ كيانى كله وتقلقنى اعنف القلق . وعاد ابى اخيرا ، وسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الى العزاء والســـلوى . وكان ثملا بعض الشىء . فقد نظر الى حين رآنى نظـــرة حائرة وغريبة فى آن واحد ، وبعد ان قادنى الى ركن من الممر القى على باب الغرفة نظرات خائفـــــة ، واخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لى ، ثم حذرنى من ان اسرق بعد الآن شيئا من نقود امى ، قائلا ان هذا امر سىء معيب . واضاف ان هذا حدث فى هذه المرة لأن بابا كان فى حاجة ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هــذه الدراهم فى يوم ما ، واننى استطيع يومئــــذ ان اقول لامى اننى وجدت ما اضعته ، وان سرقة الدراهم من ماما شىء فظيع ، ينبغى ان لا اعود اليه قط ، بل اضاف انه سيسهر

على هذا الامر بعد الآن ، واننى ان أطعته فسوف يأتينى بحلوى اخرى .. بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال ان على ان ارثى لحال أمى ، المريضة ، البائسة ، التى تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثلاثة . **واستمعت الى كلام أبى ، وانا ارتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعى . كان انفعالى من القوة بحيث لم استطع أن اجيب ولا أن اتحرك . ثم دخل البيت بعد ان أمرنى بأن لا ابكى وبأن لا اذكر شيئا مما حدث** . ولاحظت عندئذ انه كان فى حالة انزعاج هائل، هو الآخر . وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما انا اترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم اجرؤ على ان انظر الى أبى ، وعلى ان أقترب منه . وكانت امى تسير فى الفرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها . كانت وطأة المرض عليها فى ذلك اليوم أقسى ، كانت تعانى نوبة حادة من الاوجاع . وأخيرا انتابتنى حمى من شدة الانفعال الاصم الذى كنت أعانيه . وحين أظلمت الفرفة لم أستطع أن أنام ، وهاجمتنى احلام مزعجة مخيفة ، فأخذت أشهق باكية . واستيقظت امى على اصوات شهيقى ، فنادتنى اليها وسألتنى عما بى . وبدلا من أن اجيب ، ازداد شهيقى قوة . عندئذ اشعلت أمى الشمعة ، واقتربت منى تحاول تهدئتى ، لاعتقادها بأن حلما أفزعنى، واخذت تقول : « كفى ، كفى ، ايتهاالحمقاء..تبكين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى . » ثم قبلتنى وأرادت أن تأخذنى الى سريرها كى أنام الى جانبها . ولكننى رفضت . لم استطع

ان اضع ذراعي على عنقـــها ، ولا ان اتبعها . كان عذابي يتجاوز كل الحدود ، ووددت لو اعتـــرف لها بالحقيقة . وما كنت لاستطيع ان امســك عن ذلك ، لولا انني تذكرت ابي ، وتذكرت انه حذرني من افشاء السر !

وقالت امي ، وهي ترتب سريري وتغطيني بمعطفهـــا العتيق ، اذ لاحظت انني ارتعش من الحمى :

ـ مسكينة انت يا نيتوتشكا ! اعتقد انك مريضة مثـــل امك .

ثم تاملتني بحزن شديد لم استطع معـــه ان احتمـــل نظرتها ، فاغمضت عيني ، واستدرت الى جهة الحائط . لا ادري متى نمت ، الا ان صورة امي المسكينة وهي تكلمني ظلت ماثلة امامي وانا بين النوم واليقظة . لم اكن شعرت قبل ذلك بالم ثقيل الى هذا الحد . كان صدري منقبضا انقباضا خانقا ، الا انني شعرت بتحسن في صباح اليـــوم التالي . واخذت اتحدث مع ابي دون ان اشير الى حوادث الامس ، لشعوري بان اشارة كهذه لن تسره . ومالبث ان انبسطت اساريره ، فقد كان هو الآخر ينظـــر الي في قلق اصم ، حتى اذا رآني مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج . وبعد قليل خرجت امي من البيت فلم يستطع ابي ان يكبح جماح نفسه فاخذ يقبلني بقوة ... كنت اجن من شدة الفرح ، فصرت ابكي واضحك في آن واحد !.. ثم اخبرني انه ، مكافاة على انني كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيريني شيئا جميلا جدا ، شيئا سيسرني جدا

أن اراه . ثم فك ازرار سترته واخرج مفتاحا صفيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود . ثم ألقى على نظرة غريبة كأنما يريد ان يقرأ فى عينى السرور الذى كان لابد ـ فى رايه ـ أن أشعر به . وفتح الصندوق واخرج منه ، فى كثير من الحذر ، علبة سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك أبدا . ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال . واخيرا فتح العلبة الفريبة بالمفتاح ، واخرج منها شيئا غريب الشكل لم اره قبل ذلك ايضا . وتناول الشىء بيديه فى عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه . ثم حدثنى بصوت منخفض رصين حديثا لم افهمه . والشىء الوحيد الذى علق بذهنى هو ما كنت اعرفه من قبل من ان ابى فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه فى يوم من الايام ـ بعد هذا اليوم او قرب ـ ومن اننا سنصبح يومئذ اغنياء نعيش حياة سعيدة لا يكدرها شىء . وسالت دموع ابى على خديه وتملكنى أنا انفعال شديد ، واخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الى لأفعل مثلما فعل . ثم لاحظ اننى أتمنى لو أرى الآلة عن كثب ، فأجلسنى على سرير أمى ، ووضع الآلة بين يدي . الا اننى شعرت انه كان يرتجف خوفا على الآلة ان اكسرها . ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا ، فرفعت نظري الى ابى قائلة :

ـ هذه موسيقى ..

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :
– نعم ، نعم ، موسيقى . انك صغيرة ذكية ، شجاعة .
غير اننى لاحظت بوضوح ، رغم مدائحه وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آلته ، واستولى على الخوف انا ايضا . فبادرت الى ردها اليه .. فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، واغلق العلبة ثم ردها الى مكانها فى الصندوق . ووعدنى وهو يداعب رأسى أنه سيرينى الكمان مرات اخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما انا الآن .

وهكذا طرد الكمان حزننا كلينا . ومع ذلك همس أبى فى اذنى ، حين اتى المساء ، ان لا انسى ما اوصانى به أمس.
على هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس . وكان حبى لابى (والأفضل ان اقول ((عشقى)) لابى ، لاننى لا اعرف كلمة قوية تستطيع ان تعبر تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو ابى دفعا) اقول : كان عشقى لابى يشتد ويشتد حتى اصبح نوعا من الهوى المرضى !.. صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير ان أفكر فيه ، وان احلم به .. صرت لا أفكر الا فى شىء واحد .هو ان اعمل كل ما استطيع عمله لاوفر له ولو اقل السرور . كم من مرة انتظرت عودته على السلم ، وأنا ارتجف من البرد ، لا لشىء الا ان احس وجوده واراه قبل الموعد بلحظة . وكنت اجن من الفرح حين يتفق له ان يمسسنى بمداعبة عابرة . على ان فتور عاطفتى نحو امى كثيرا ما كان يسبب لى حزنا أشبه بالعذاب . كنت اذا نظرت اليها

امتلأت نفسى هولا . الا اننى لم اكن استطيع ان أظل محايده فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع . كان لابد لى أن أختار احدهما وان اتحزب له . وقد تحزبت لهذا الانسان نصف المجنون ، لانه كان فى نظرى انسانا بائسامضطهدا ، ولانه قد خاطب خيالى منذ البداية . ومع ذلك . من يدرى ؟ لعلى تحزبت له لغرابته الشديدة ، وحتى لغرابة مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلى احببته لاننى لم أكن اخشاه كما أخشى أمى ، ولاننى لم اكن احترمه كما احترم امى ، بل كنت انظر اليه كأنه ند لى ، من اترابى .. حتى لقد شعرت شيئا فشيئا اننى سيطرت عليه ، اننى اخضعته ، واننى اصبحت له حاجة لا غنى عنها . ولم يصبنى من ذلك زهو وغرور ، ولكنه الشعور بالظفر ، وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث كدت فى بعض الاحيان ان ادل عليه ، واتظرف له . الحق ان فى تعلقى الغريب هذا شيئا ممايذكر بالروايات.

الا ان هذه الرواية لم يقدر لها ان تدوم طويلا ، فاننى ما لبثت ان فقدت أبى وأمى . لقد انتهت حياتهما بفاجعة فظيعة مازالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم كيف وقعت الفاجعة :

- ٣ -

فى تلك الفترة ، راج فى بطرسبرج ان العازف الشهير على الكمان «س» سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ فى بطرسبرج ضجة كبرى ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، واقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرحون فى كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئا !.. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التى يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التى لم تجففها الأيام ، وماذكر عنه من انه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بآخر جولة له فى اوروبا قبل ان ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره فى حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت ان وصول كل عازف جديد على الكمان ، كل موسيقى شهير ، كان يولد فى ابى شعورا مؤلما . كان دائما أول المقبلين على سماع أى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته . وكثيرا ما كان يمرضه الثناء الكثير

على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمانينة الا حين يستطيع ان ياخذ على عزفه عيبا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، اينما استطاع ذلك ، فى سخرية مرة لاذعة . لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى فى الدنيا الا موهبة واحدة ، هى موهبته ، ولا يرى فى الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه . ومع ذلك فان وصول «س» ، الموسيقى العبقرى ، قد أحدث فى نفسه نوعا من الرعب. وينبغى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الأخيرة موسيقى واحد يمكن ان تقاس موهبته بعبقرية « س » . كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف فى اوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين .

وقد رووا لى انه ما ان اذيع نبأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفعلا أشد الانفعال ، وانه كان يسائل الناس ، قلقا ، عن « س » ، وعن الحفلة المزمع احياؤها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا . وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد اثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث ان قال له احدهم مستفزا :

— اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن تسمع فى هذه المرة ، يا عزيزى ، موسيقى « باليه » . وانما ستسمع موسيقى تحرمك لذة الحياة !

وقد اكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة . الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

— سنرى . ليس فى وسع غريب آت من بعيد ان يخدع الناس فى حقيقة امره مدة طويلة . اظن ان «س» قد عزف فى باريس . والفرنسيون هم الذين اذاعوا اذن صيته ، ونحن نعرف قيمة هؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك . لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه ، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته ان ينتقد ، وان الانتظار لن يطول ، مادامت الحفلة ستقام بعد غد .

وقد روى لى«ب»انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقى الامير «ك» ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمون الفن ويتذوقونه تذوقا عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا «ب» يلمح ابى فجاة ، عند منعطف احد الشوارع ، واقفا امام احد المخازن يحدق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبيرة عن حفلة « س » .

فقال «ب» للأمير وهو يدله على ابى :

— هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

— من هو هذا الشخص ؟

فأجاب «ب» :

ـ انك تعرفه . هو يافيموف الذى حدثتك عنه اكثر من مرة ، والذى اردت ان تتفضل عليه بحمايتك .

فهتف الامير قائلا :

ـ آ ... اهذا هو ؟ نعم لقد حدثتنى عنه كثيرا .. يقال انه انسان عجيب ، لكم أحب ان أسمعه .

فأجاب « ب » :

ـ كلا ، ان ذلك لايستحق العناء . ان الاستماع اليه مؤلم . لا ادرى ما هو الأثر الذى يمكن ان يحدثه فى نفسك . اما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا . ان حياته مأساة محزنة . اننى اعرف حقيقة نفسه . ورغم انحداره الى الدرك الأسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما . لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الأمير ، ان سماعه لابد ان يكون أمرا شائقا . هذا صحيح . الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شىء . انه اولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ افسد حياته ، ومجرم فى حق امراته وابنته اللتين افسد حياتهما ايضا . اننى اعرفه . لو ادرك جريمته لمات على الفور .. وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !

ـ وهو يعيش حياة بائسة ؟

ـ نعم . والبؤس سعادة له ، لانه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن ان يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا

لاستطاع ان يتفرغ لفنه ، ولأمكن ان يعرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته . لقد تزوج يحدوه امل عجيب هو ان تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته ان تنهضه من عثرته . لقد تصرف على هذا النحو كانسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شانه فى سائر حياته على كل حال . هل تعرف ماذا يردد كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى ان امراته هى المسئولة عن جميع مبائسه ، انها هى التى تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يعقد ذراعيه ويأبى ان يعمل . ولو انتزعت منه امراته لاصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لانه كلما امسك بقوسه شعر فى أعماق نفسه انه لا شىء . حتى اذا عاد فارغ قوسه فى مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، واصبح واثقا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل ان معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما ان اكون قيصر ، واما ان لا اكون شيئا ! » .. كانما يستطيع المرء ان يصبح قيصر فى طرفة عين !.. وحين يصبح شعور كهذا الشاغل الوحيد الذى يملأ راس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لانه يكون قد فقد الفريزة الفنية الاساسية ، اعني حب الفن للفن ، هذا الحب الذى لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . انظر الى « س » مثلا ; انه متى امسك بقوسه غاب عن كل شيء فى الوجود الا الموسيقي ، والشيء الذي يحتل المكانة الاولى عنده بعد

الموسيقى انما هو المال . اما المجد فانه لا ياتى الا فى المرتبة الثالثة فيما اعتقد . انه آخر مشاغله. هل تعرف ما الذى يشغل بال هذا البائس يافيموف فى هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هذا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على «س» ام ان «س» متفوق عليه ؟ لا شىء غير هذا السؤال يشغل باله . لانه يظل مقتنعا رغم كل شىء بأنه اعظم موسيقى فى العالم !.. ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقى فى العالم فأنا كفيل لك بانه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟..لاشىء أفظع من التحرر من فكرة ثابتة ، سيما حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، فى ايمان خطير عميق .. على ان يافيموف قد بدأ بداية صادقة فى الواقع..

فقاطعه الامير قائلا :

– لاشك ان مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » ، امر شائق .

فأجاب « ب » سادرا :

– نعم . بل لا . انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا ، لأن جنونه أقوى من الحقيقة . سيجد لنفسه مهربا على الفور .

– تعتقد ؟

وفى هذه اللحظة وصلا الى ابى الذى اراد ان يتوارى حالا . الا ان «ب» امسك به وأخذ يكلمه . سأله هل ينوى ان يذهب الى الحفلة ليسمع «س» ، فأجاب ابى – بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع – قائلا انه لا يدرى هل يذهب

او لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر فى الامر على كل حال ، وانه لا مانع عنده من الذهاب اذا وجد فى وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع ذلك . قال ذلك ثم القى نظـــرة على «ب» وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة ، ورفع قبعته ، واحنى راسه ، وتركهما زاعما انه فى عجلة من امره ..!

اما انا فكنت قد لاحظت اضطراب ابى منذ الليلةالبارحة. وكنت أجهل سبب هذا القلق الذى عصف به ، على وجـه الدقة ، الا اننى رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضما . حتى ان امى لاحظت ذلك . وكانت يومئـــذ مريضة جدا ، بل كانت لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وكان أبى لا ينى يدخل ويخرج بلا انقطاع . وفى الصباح جاءه ثلاثة أشخاص أو اربعة من رفاقه القدماء ، وقد استغربت ذلك، ولاسيما انه لم يكن يغشانا أحد تقـــريبا ، عـــدا كارل فيودوروفتش ، بعد ان هجرنا جميع الناس منذ انقطـع ابى عن التردد على كواليس المسرح . واخـــيرا جاء كارل فيودوروفتش راكضا ، لاهثا ، يحمل فى يده «برنامجا» ، كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، واصغى اليها ،بانتباه عميق ، وانا فى حالة تأثر وانفعال ، كاننى السبب فى هذا القلق الذى اقرؤه فى وجه ابى . وددت لو أعرف ما الامر ، وسمعت لاول مرة اسـم « س » ، ثم فهمت انه لابد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة «س» . واذكر ايضا ان ابى لم يستطع ان يكبح سورة اضطرابه ،

فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التى تأتى من البلاد الاجنبية ، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ، يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا - كغيره - باحثا عن المال ، وان الروسيين اناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ، لاسيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها!..وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لا موهبة له » . وبعد ان ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبى لهياجه العنيف . واردت ان اسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وامسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » . ثم نظرت الى ابى وهو جالس على الطرف الآخر من الطاولة مستغرق فى التفكير ، وقلت له ضاحكة : «لاشك ان هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه شىء حسن ، هو الآخر » .. فانتفض أبى كأنما استولى عليه خوف مفاجىء ، وانتزع البرنامج من بين يدى ، واخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث ان عدل عن ذلك ، والتفت الى ، ودعانى ان اوافيه فى الممر. **وهناك قبلنى واخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع ان يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لا احب له طبعا ان يتألم ، وانه يعتمد على الآن فى أمر هام . ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام .** على ان حديثه آلمنى ، فقد ادركت ان كلماته ومداعباته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا

لاشاعة الاضطراب فى نفسى ، وهكذا اصبح قلقى عليه عذابا ممضا .

وفى اليوم التالى — وهو اليوم الذى سبق موعد الحفلة — بدا لى ابى اثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث فى نفسه تغيير رهيب. كانت نظراته تنتقل بينى وبين امى، بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتى كبيرة حين رأيته يتحدث الى امى ، ولاسيما انه كان لا يكاد يخاطبها بكلمة واحدة . وبعد ان فرغنا من الطعام لاطفنى كثيرا ، وجعل يدعونى فى كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الحجج ، وهناك يأخذ ينظر من حوله كأنما هو يخشى ان يقبض عليه بالجرم المشهود ، فاذا اطمأن الى انه ما من احد يراه ، طفق يداعب راسى ويقبلنى ويردد على مسامعى اننى ابنة طيبة ، واننى احب بابا من غير شك ، واننى سأفعل كل ما يطلبه الى ما فى ذلك ريب . وقد أسلمنى هذا الى قلق لا يطاق . واخيرا ، حين دعانى الى الممر ، للمرة العاشرة، اتضحت الامور : فى هذه المرة نظر ابى الى جميع الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألنى وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت امى الخمسة والعشرين روبلا التى اتت بها فى صباح الامس ؟.. فما ان سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأننى أموت من شدة الخوف ، الا ان ابى وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركنى حيث انا وهرب. ولم يعد الا فى المساء ، حيث جلس على كرسى وقد بدا عليه الاضطراب والحزن وانشغال البال ، واخذ ينظر الى بنوع

من الحياء الوجل . وتملكنى خوف شديد حتى صرت احاول ان اتحاشى نظرته . واخيرا نادتنى امى ، وكانت فى السرير طوال اليوم من وطأة المرض ، فاعطتنى قطعة نقـــدية ، وارسلتنى اشترى لها من الدكان قليلا من الشاى والسكر. كان الشاى لا يشرب الا نادرا فى بيتنـــــا ، اذ كانت أمى لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما نحن فيـه من الفقر ، الا حين تشعر انها مريضة محمومة .. فأخـذت الدراهم ، وما أن خرجت الى الممر حتى جعلت اعـدو ، خشية ان يلحق بى ابى . الا ان ماكنت اخشاه قد وقع : فقد ادركنى ابى فى الشارع واعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

ــ نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هذه الدراهم ، وغدا سوف ..

فارتميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

ــ بابا ، بابا ، لا أستطيع . لا يجوز . لا يجوز . ان ماما فى حاجة الى الشاى . لا يجوز ان تسرق ماما . كلا لا يجوز . مرة أخرى ..

فدمدم كأنما هو يهذى :

ــ آ . لا تريدين ؟ لا تريدين ؟ حسنا .. الآن أتركك .. ابقى مع ماما . أما أنا فسأذهب وحدى . هل تسمعين ، أيتها الابنة السيئة ؟ هل تسمعين ؟

ــ بابا . خذ . ما العمل ؟ ستبكى أمى أيضا . وستؤنبنى أيضا .

قلت هذا وانا أرتعد من الخوف ، وأضرب كفا بكف ، واتعلق بذيله .

لم يكن ابى يتوقع هذه المقاومة . على انه اخذ المال ، ولم يستطع أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب .

وصعدت السلم . الا أن قواى خانتنى على باب مسكننا ، فلم اجرؤ على الدخول ، لم استطع الدخول . كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع . كان قلبى كأنما انخلع . ووضعت وجهى بين ذراعى كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت ابى يتمنى موت أمى . وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان يجعلنى كقطعة من الثلج ترتجف . واخيرا سمعت وقع خطوات سريعة تصعد السلم فعرفت انه ابى .

قال ابى هامسا :

ـ هذا انت ؟

وارتميت على عنقه .

ـ خذى . خذى دراهمك ، ولست اباك بعد الآن . هل تسمعين ؟ لا اريد ان اكون اباك . اذهبى الى أمك . لا أريد ان آخذك معى .

فلما انهى هذا الكلام دفعنى عن نفسه ، وهرب مرة اخرى هابطا السلم . فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

ـ بابا . أبت العزيز . سأفعل كل ما تريد . أنت تعلم انني احبك . خذ . خذ الدراهم . خذها !

الا انه كان قد غاب . كان الذعر من القوة بحيث ظللت

السهرة كلها محمومة لا استطيع أن أتحرك . واذكر ان امى كلمتنى ، وجاءت بى الى جانبها ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما ارى شيئا ولا اسمع شيئا . وادى ذلك كله الى نوبة : فأخذت ابكى وأعوى ، وارتعبت أمى فلم تدر ماذا تصنع . ووضعتنى فى سريرها . وكنت خائفة مما أتوقع أن يقع بين دقيقة واخرى ، فاذا أنا انام ، لا ادرى كيف ، متشبثة بعنقها . وانقضى الليل على هذا النحو ، فلم استيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعد أن غادرت أمى البيت الى عملها . ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غريبا ، وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا .وانتظرت أن يذهب هذا الزائر بصبر فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية منتحبة ، أتوسل اليه أن يغفر لى سلوك البارحة ..

فسألنى بلهجة قاسية :

ـ هل تصبحين عاقلة . كما كنت فى الماضى ؟

فأجبت :

ـ نعم ، يا أبت . أعدك بذلك . ساقول لك أين تخبىء أمي دراهمها . لقد وضعتها امس مساء فى هذه العلبة ، على الرف .

فصرخ ابى منتفضا :

ـ اين ؟ اين ؟

وقفز من مكانه وسألنى مرة أخرى :

ـ أين الدراهم ، تقولين ؟

ـ ان العلبة مقفلة بالمفتاح ، يا ابت . انتظر حتى هذا المساء. سترسلنى امى لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رايت ذلك بنفسى .

ـ اننى فى حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يا نيتوتشكا . هل تسمعين ؟ خمسة عشر روبلا فقط ! هاتيها اليوم ، وسأردها اليك غدا . وسأمضى حالا اشترى لك حلوى ، وجوزا .. ولعبة ايضا . وغدا ، غدا على التأكيد ، ارد اليك الدراهم . وسأشترى لك حلوى فى كل يوم ، اذا كنت عاقلة فأعطيتنى خمسة عشر روبلا !

ـ كلا ، يا بابا ، لا اريد حلوى . لن آكل الحلوى اذا جئتنى بها ، سأردها اليك .

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبى من القلق .

ادركت فى تلك اللحظة أن ليس فى قلبه ذرة من رحمة بى ، وانه لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى أخضع لارادته طمعا فى الحلوى !.. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت أن أنفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة أن عبادتى اياه قد تسممت الى الابد . شعرت أننى لن أستطيع أن أحبه بعد الآن !..
شعرت أن بابا الحبيب القديم قد فقد نهائيا . أما هو فقد سره وعدى ، بل سحره . لقد راى اننى مستعدة من أجله لكل شىء . ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند امى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان

ضميرى يعول من اليأس . الا ان أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت افهم كل شىء . غير ان أبى كان لا يرى فى الا طفلا فى الثالثة من عمره . وتملك أبى فرح هذيانى ، فغمرنى بالقبل ، وتوسل الى أن لا ابكى ، واكد لى ، مداعبة لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحر اليوم نفسه . ثم اخرج البرنامج من جيبـــه ، وذكر لى أن الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انمـــا هو عدوه ، بل أحد أعدائه الالداء ، الا انه لن يستطيع أن ينتصر عليه . لا هو ولا غيره . لا شك انه هو الطفل ، لا انا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه !.. ولما رأى اننى ظللت صامتة لاأجيب ولا أبتسم كما ابتسم عادة ، تناول قبعتـه ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى . وتبسم لى ، وأشار الى اشارة الاتفاق . كأنما هو غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .

***

سبق أن قلت انه تغير منذ الامس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر . كان لا بد له من الحصول على المـال لشراء تذكرة ، مهما كلف الامر . فقد كان يعتقد ان هذه الحفـلة سيكون لها فى حياته تأثير حاسـم ، حتى انه حين أراد أن يستولى على الدراهم القليلة التى كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى انها لا تكفى لشراء التذكرة . وقد تجلى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو اوضح ،

أثناء الطعام . كان عاجزا عن أن يستقر فى مكانه ، ولم يلمس الطعام أبدا ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رايه ، ثم يجلس مرة اخرى ، او كان يهم بأن يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى فى مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام لا يخرج من بين اسنانه ، أو يلقى على نظرة سريعة ، ويطرف لى بعينه ، ويقوم باشارات يبين لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة .. لكأنه يحقد على لاننى لم اسرقها من امى بعد . واخيرا لاحظت امى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب . **أما أنا فكنت أشعر بالخوف الذى يعانيه شخص حكم عليه بالاعدام !.. فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت فى ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق فى انتظار اللحظة التى اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق . رباه ! اننى لم أعان فى حياتى بعد ذلك شيئا كريها الى هذا الحد ، وستظل هذه الدقائق محفورة فى ذاكرتى الى الابد . ان فى الحياة ساعات كأنما تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها ..** كنت أعلم أننى قادمة على اقتراف عمل سيىء . ألم يحاول ابى نفسه ان يوقظ فى غرائز الخير فى المرة الاولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير ، ثم هاله عمله فبين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لا أعود اليها ؟ اليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن أن من الصعب أن يفش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على اننى أدركت انه كان يدفعنى الآن الى اقتراف

الشر مرة اخرى ، ويضحى هكذا بطفلة بائسة لا حيلة لها فى الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة !.. ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد أن يكافئنى على عمل ساقوم به عن طيب خاطر؟ » .. وهاجمتنى احساسات جديدة ، وآمـــال جديدة — خرجت لا أدرى من أين — وحاصرتنى أسئلة جديدة . ثم اذا بى فجأة لا أفكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت آخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا ارتعـــد ارتعادا شديدا ، فأخذت القطعة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى تقول :

— اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك، وحذار ان تضيعى شيئا .

فألقيت على أبى نظرة متوسلة . الا انه هز راســـه ، وابتسم ابتسامة تشجيع ، واخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة. لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ، ألما كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . وكان انفعـاله وتعجله من القوة بحيث انه اسرع ورائى دون اى احتياط او تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم مظلما جدا ، فلم أستطع أن اتبين وجه أبى ، الا أننى شعرت بأنه يرتجف وهو يتناول

المال . وظللت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم انتبه الى نفسى الا حين طلب الى أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته . كان لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت متقطع ، وكان املى الاخير هو ان يدافع عنى . قلت :

ـ بابا ، لماذا لا تصعد معى ؟

ـ لا . . . اصعدى وحدك .

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلا :

ـ انتظرى انتظرى . انتظرى ريثما آتى اليك بالحلوى اولا . ولكن اصعدى قبل ذلك ، واتينى بقبعتى .

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبى . فانطلقت من صدرى صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا . وحين دخلت الى البيت كنت من الانهيار بحيث لو قلت لأمى أن المال قد سرق لصدقتنى . غير أننى كنت عاجزة عن الكلام . وتهالكت مهدمة على سرير امى وقد خبأت وجهى بذراعى . وما ان انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر ابى . . لقد جاء لأخذ قبعته . وحزرت أمى فجأة ان شيئا ما قد حدث ، فصرخت بى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولى . قولى !

ثم حملتنى بقبضة يدها ، ووضعتنى على قدمى فى وسط الغرفة . ولكنى اطرقت ، وسكت ، وانا لا أكاد أفهم ما وقع لى ، ولا ما يراد منى . وصرخت امى مرة اخرى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبى ، الذى تناول قبعتـــه ، وسألته :

ــ أين الدراهم ؟ آ .. لقد أعطتك اياها !.. وضيع . مجرم . مجنون . تريد أن تشقيها هى أيضا . هى الطفلة . الطفلة . لا . لا . انتظر . لن تذهب هكذا !

ووثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح فى جيبها .

ــ هيا . تكلمى . قولى الحقيقــة . اعترفى بكل شىء . تكلمى ، تكلمى ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهى تقبض على ، وتهز ذراعى . وأقسمت فى هذه اللحظة لألزمن الصمت ، ولا أتهم أبى . ورفعت عينى نحوه ، مرة أخيرة ، فى حياء . كان يكفينى منه عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ، على نحو ما اتوقع ، على نحو ما أتمنى ،حتى أكون سعيدة، بالرغم من اى تعذيب ينالنى.الا انه بدلا من ذلك ــيارباه!ــ أمرنى ان اسكت ، باشارة مهددة باردة .. كما لو كان يمكن أن اخشى شيئا من الاشياء فى مثل هذه اللحظة . وشعرت بحلقى يتقبض ، وبأنفاسى تتقطع ، وبساقى يلتويان تحتى ، وسقطت الى الارض مغشيا علىّ ، وانتابتنى مرة أخرى النوبة العصبية التى صرعتنى بالامس .

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنـــا . وفتحت أمى الباب . ورأيت رجلا يرتدى ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ، ثم ينظر الينا نظرات تنم عن

الدهشة ويسال عن الموسيقى يافيموف ، فيتقدم أبى نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول « ب » الموجود الآن فى منزل الامير سيده . كان المظروف يحتوى على تذكرة ممتازة لحضور حفلة الموسيقى «س» !

ان ظهور هذا الخادم الانيق الذى يأتى خصيصا من قبل سيده الامير لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث فى نفس أمى ، فجاة ، تأثيرا كبيرا . قلت فى أول هذه القصة، ان هذه المراة البائسة كانت تحب أبى الى حد العبادة . **وكان قلبها ، فى هذه الدقيقة ، رغم السنين الثمانى التى قضتها معه فى شقاء دائم لم يتغير أبدا . لقد كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شىء . ومن يدرى ! فلعلها اعتقدت فجاة بان الحظ سيبتسم ، وان كل شىء على وشك ان يتغير . لقد كان يكفى خيالهـــا ظل من أمل ، حتى يسترسل فى أحلامه !** لعل عدوى الاحلام المجنونة التى كانت تملأ رأس زوجهـــا قد سرت الى راسها هى الاخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعبقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من امر ، فمن المستحيل ان لا تتاثر امراة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاتة الامير تتخيل فى طرفة عين الف امل وامل . وفى طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التى قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الاخيرة التى اقترفها فى حقها وهى افساد طفلتها الوحيدة . لقد أصبحت مستعدة ، فى انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لأن تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، لأن لا ترى فيهـــا الا

خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البـؤس ، وحياة الذل ، وضياع الامل . الخلاصة : لقد كان كل مافيها الآن سرورا وامتنانا ، واصبحت مستعدة لأن تنسى كل شىء فى سبيل زوجها المسكين .

أما أبى فكان لا يستطيع ان يستقر فى مكانه من شـدة فرحه . لقد سحرته التفاتة الاميروصديقه«ب». واقترب من امى غير متردد ، وهمس فى اذنها بضع كلمات خرجت أمى على اثرها من الفرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية .

فتناول أبى روبلا على الفور ، وقدمه للرسول . وانسحب هذا بعد اظهار آيات الاحترام المهذب . وخرجت أمى من الفرفة مرة أخرى ، وعادت بعد لحظة «بمكواة» ، وأخذت تكوى قميصا هو احسن قمصان زوجها ، وتولت هى نفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التى كانت قد حفظتها فى خزانتها ، بعناية ، للطوارىء ، مع الرداء الاسود الذى كان قد اشتراه لعمله فى لمسرح ــ وكان قد أصابه البلى بعض الشىء ــ فلما انتهى أبى من زينته ، تناول قبعته ، وهم بأن يخرج ، الا انه قبل أن يخرج طلب شيئا يشربه . لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفـا ، فارتمى على كرسى ، وأتيت له أنا بكأس من الماء . لعل شعور العداوة قد دب من جديد فى قلب أمى ، فأخمد حماستها الاولى . ومضى أبى وبقينا وحدنا . وانطويت أنا فى أحد أركان الفرفة ، وأخذت أتأمل امى مدة طويلة ، وانا صامتة . لم ارها يوما فى مثل هذه الحالة : لقد

كانت شفتاها ترتجفان ، واحمر خداها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعــد من حين الى حين . وأخيرا اخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاما متقطعا ، وشهقات صما .

ـ انا المجرمة ، انا وحدى المجرمة . ما أشقانى يا رباه ، ماذا ستصبح بعدى ، ماذا ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهى واقفة فى وسط الفرفة ، كأن صــاعقة وقعت على راسها حين فكرت فى ذلك . ثم أردفت تقول ، وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى :

ـ نيتوتشكا ، صفيرتى البائسة ، من ذا الذى سيعنى بأمرك بعد ان لم احسن تربيتك ولا ملاحظتك فى هذه الحياة التى نعيشها . آه . انك لا تفهمين . هل ستذكرين ماأقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولى ، هل ستذكرينه ؟

فصرخت وانا أضم يدى احداهما الى الاخرى باشــارة التوسل :

ـ نعم . نعم يا أماه ..

وضمتنى اليها فى قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال عنى .

شعرت كأن قلبى يتمزق .

وسألتها وانا أبتلع دموعى :

ـ أماه ، أمى الحبيبة : لماذا .. لماذا .. لا تحبين أبى ؟

ولم يسمح لى الشهيق بأن أتم كلامى .

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها فى طول

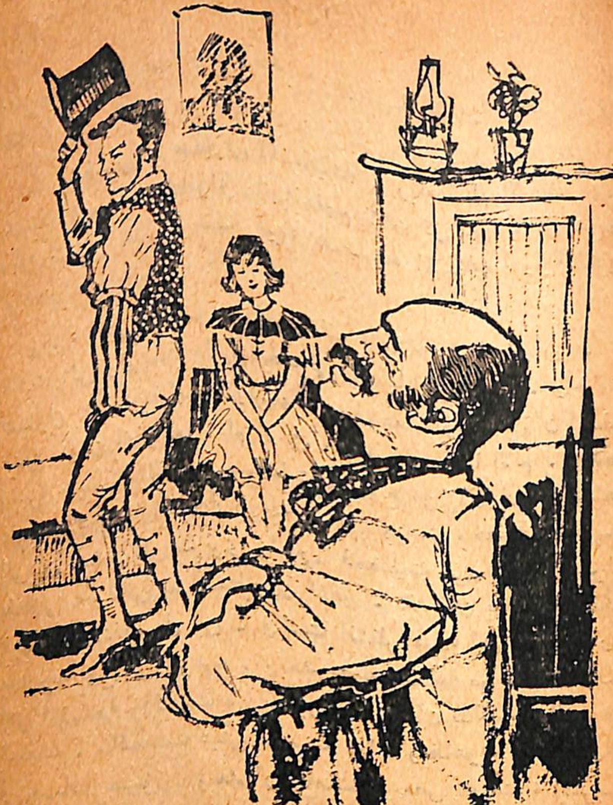

كان ابى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الى بعينيه خلسة لينبئنى بانه سيسخر من الألمانى ، وبأن الأمر سيكون مضحكا جدا

(ص ٦٧)

الغرفة وعرضـها وقد اخذ حزنهـا الشديد بخناقها من جديد .

– صغيرتى ، صغيرتى المسكينة . رباه . لم الاحظ انهـا شبت عن دور الطفولة . انها تفهم الآن كل شيء ، كل شيء. رباه ! أى آثار ستخلف فيها هـذه المشاهد ! وأية قدوة ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الالم واليأس . ثم عادت الى وارتمت على ، تغمرنى بسيل من القبل . وأخذت تتناول يدى وتقبلهما ، وتبللهما بدموعها ، وتسألنى أن أصفح عنها ، وان أغفر لها . لم أر فى حياتى ألما كهذا الالم . وبدت اخيرا منهوكة القوى ، فسقطت فى نوع من الانهيار . وقضت على هذه الحال ساعة طويلة . ثم نهضت محطمة ، وطلبت الى أن أمضى الى سريرى وانام. فمضيت الى ركنى ، وتدثرت بغطائى ، ولكنى لم أستطع أن اغفو . لقد كان يعذبنى التفكير فيها ، والتفكير فى أبى . وكنت انتظر عودة أبى بصبر فارغ يمازجه نوع من الرعب . وبعد نصف ساعة من ذلك تناولت أمى الشمعة واقتربت من سريرى تريد ان تتأكد من اننى قد اغفيت . فأغمضت عينى تطمينا لها ، وتظاهرت بأننى غارقة فى سبات عميق . وبعد أن تأملتنى بعض الوقت ، اقتربت من خزانتها سائرة على أطراف الاصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على عادتها حين يعود أبى متأخرا.

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم

النعاس ، وكنت ما أن اغمض جفنى حتى تجتاحنى رؤى فظيعة ، فانتفض مذعورة . وكان خوفى يشتد ويشتد .

كنت أود لو أصرخ ، الا ان صوتى كان يختنق فى حلقى . وأخيرا ، فى ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت ابى يدفع الباب . لقد كان شاحبا شحوبا فظيعا . كان يهوم فى غرفتنا صمت الموت . وكانت الشمعة على وشك أن تذوب كلها ، وهى تضىء مسكننا بنور حزين .

نظرت الى أبى مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس ، مجمد اليدين على الركبتين فى سكون تام . حاولت عدة مرات أن أناديه ، الا اننى لم استطع ، فكأننى مشلولة . وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه ، ونهض عن كرسيه ، وظل ، خلال لحظة من الوقت ، واقفا فى وسط الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغتة من سرير أمى ، وانحنى عليها يتصنت ، فلما أيقن انها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذى يرتاح فيه كمانه ، ففتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم نظر مرة أخرى حوله . كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه فى اضطرب لم أعهد مثله فيهما من قبل .

وهم بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركها ، وعاد الى الباب يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ، ورأى القدح ، فملأه خمرا وشربه . ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله ، ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير أمى مرة أخرى . وقبعت انتظر ما سيقع ، وانا

اشد ما اكون انهيارا ..

وأصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجأة عن وجه أمى ، ومد اليه يده يجسه . وارتجفت . وزاد انحناؤه على رأس أمى حتى لامسه بوجهه . ولما نهض عنـــه رأيت ابتسامة صفراء رهيبة مرعبة تطوف فى وجهه . ثم ارجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ، بهـدوء ورفق وعناية . واخذت ارتجف ، وقد تضاعف خوفى وذعرى: خفت من أمى ، من نومها العميق هــذا العمق . خفت من الخطوط المتجمدة التى يرسمها جسمها تحت الغطاء . ودبت فى نفسى فكرة فظيعة وقعت منى موقع الصاعقة .

ولما فرغ أبى من جميع أعمال التمهيــــد هذه ، عاد الى الخزانة ، وافرغ فى جوفـــه باقى الزجاجة . كان يرتجف كورقة فى مهب الريح حين عاد الى الطاولة . كان من الشحوب بحيث لا يعرف . وتناول كمانه . لقد رأيت هذه الآلة من قبل ، وكنت اعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيعا .. وانتفضت حين سمعت أول صوت . لقد أخذ أبى يعزف . الا أن الاصوات كانت تأتى متقطعة . لقد كان يتوقف فى كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته . وأخذ ينظر الى السرير نظرة غريبة . كان هناك ، على السرير ، شىء يزعجه . وعاد مرة أخرى الى السرير . واخذت التهم بعينى كل حـــركة من حركاته ، وقـــد تملكنى خوف لا اسم له ..!

وفجأة ، اخذت يداه تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتنى

نفس الفكرة مرة أخرى كالصاعقة : **لماذا تنام أمى نوما عميقا الى هذا الحد ؟ كيف لا تستيقظ على يدى أبى تجسانها هكذا ؟** وأخيرا رأيت أبى يجمع كل الاشياء التى تقع تحت يديه : معطف أمى العتيق ، معطفه هو ، قميص نومه ، وحتى الملابس التى خلعتها حين نمت ، ثم يضعها جميعا فوق أمى حتى اختفت تحتها تماما . وظلت أمى متمددة ، لم يختلج لها عضو !

لقد كانت تنام نوما عميقا .

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء . الآن لن يزعجه أحد . ومع ذلك ما زال هناك شىء يقلقه . وغير مكان الشمعة . وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسرير . وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وامسك بقوسه . وبدأت الموسيقى .

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى .. ما زلت أتذكر كل شىء تذكــرا تاما ، حتى أبسط حركة . ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهى وقتئذ . كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى .. لم تكن تلك أصـوات كمان ، لقد كانت صراخا دوى فى منزلنا المظلم لأول مرة . من الممكن أن تكون حالتى المرضـــية وقتئذ قد ضخمت الامور ، ومن الممكن أن تكون حواسى فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة . الا أننى مقتنعة بأننى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا .. **لقــد كان ينفجر من هذه الانغــام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شىء فى**

آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس .

ولم أستطع أن اتجلد أكثر مما تجلدت. فوثبت من مكانى مرتعـــدة ، وقد أغرق الدمع وجهى ، فارتميت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف . فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض ، وكمن فقـــد صوابه أخذ يرسل نظرته التائهة الطائشة فى كل مكان باحثا عن سلاح ما. ثم تناول كمانه فجأة ، وهم أن يهوى به على رأسى .. ولو قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى . الا أننى صرخت متوسلة :

— بابا . بابا .

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الوراء خطوتين .

ثم حملنى من كتفى ، وقال :

— آ . انت هنا . اذن لم ينته كل شىء . اذن ستبقين معى .

فقلت متوسلة من جديد :

— أبت . أبت . لا تنظر الى هكـــذا . لو تعرف كم انا خائفة ! آه ..

وأثرت فيه دموعى . فوضعنى برفق على الارض ، ونظر الى خلال بضع ثوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم . ثم كأن فكرة فظيعة راودته فجأة ، فتفجرت من عينيـــه المضطربتين دموع ســـخينة ، وانحنى على ، وأخذ ينظر فى

وجهى فاحصا . فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :
ـ بابا . بابا العزيز . لا تنظر الى هكذا . بابا ، لنذهب من هنا ، لنذهب بسرعة . لنذهب .
ـ نعم . لنذهب . لنذهب . آن الاوان . لنذهب يا نيتوتشكا . بسرعة ، بسرعة .
وتحرك حركة من فهم فجأة ما بقى عليه أن يعمله . فألقى على الغرفة نظرة مستديرة ، ولمح وشاح أمى ساقطا على الارض ، فرفعه ، ووضعه فى جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيابه ، كمسافر يزمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه .
أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخذت أجمع ما بدا لى ضروريا للرحلة . ثم سألنى أبى :
ـ هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هل هذا كل شىء ؟ هل انتهيت من كل شىء ؟ اذن فلنذهب بسرعة .

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح . الا اننى فى اللحظة التى أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على ان احمل اللوحة المعلقة على الحائط ، ووافق أبى على ذلك فورا . انه الآن هادىء ، يتكلم همسا ، ويردد ان علينا أن نمضى بسرعة . كانت اللوحة معلقة فى مكان عال جدا من الجدار . فتعاونا معا على وضع كرسى أسندناه الى الحائط ووضعنا فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها . وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير . وأمسك أبى بيدى ، الا

انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة . وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمله. وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ، ثم عاد يحمل الى بضـــعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مدمدما :

– خذى هـــذا ، احتفظى به . لا تضيعيه . حذار أن تضيعيه .

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدى ، الا انه غير بعد ذلك رأيه ، فاستردها منى ، ووضعها فى قميصى . ما زلت أتذكر الرعدة التى سرت فى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى . أعتقد اننى فى تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال. لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن . ومع ذلك استوقفنى أبى مرة أخرى .

قال وهو يستجمع أفكاره فى جهد .

– نيتوتشكا . اسمعى يا بنيتى الصغيرة . ولكن نسيت . ماذا ؟ ماذا يجب أيضا ؟ ها . نعم . نعم . تذكرت ، تعالى هيا يا نيتوتشكا .

وقادنى الى الركن الذى وضعت فيه الصور ، وأمرنى أن اركع .

– صلى يا بنيتى . هذا أولى بك ، هذا أولى بك . نعم هذا أولى بك .

قال ذلك هامسا وهو يرينى الايقـــونة ، ويلفنى بنظرة

غريبة . ثم أضاف بصوت متوسل :

– صلى . صلى .

فركعت ، وضممت يدى احداهمـا الى الاخرى ، ثم لم ألبث – وقد خنقنى الخوف – ان وقعت على الارض لا أعى ، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق . ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتى كلها الى الصلاة ، غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحنى حزن فظيع . وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبى ، لقد كان يخيفنى .. وددت لو أبقى . ثم انفرجت شفتاى عن سبب عذابى الشديد فقلت وقد تفجر دمعى عزيرا :

– وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هى ؟ أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامى من شدة الانتحاب .

فلما رآنى أبكى ، أخذ يبكى هو الآخر .

ثم أمسك بيـــدى ، وقادنى الى السرير ، فرفع كومة الملابس . ورفع الغطاء . رباه . انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه .. فارتميت عليها كالمجنـــونة ، لأطوقها بذراعى . وأمرنى أبى أن أركع مرة أخرى ، وهو يقول هامسا :

– انحنى يا بنيتى ، قولى لها وداعا ..

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبى فى الوقت نفسه . لقد كان شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شـــفتاه تتحركان بهمس ، قال وهو يشير الى الجثمان بيد مرتعشة :

– لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا . هل تسمعين؟

لست أنا الذى فعلت هذا . لست بمجرم . تذكرى هذا ، يا نيتوتشكا .

دمدمت ، وقد بلغ بى الذعر حدا لم أعرفه من قبل :

– لنمض ، يا أبى ، آن الاوان ..

قال :

– نعم . آن الاوان ، آن الاوان .

ثم أمسك ذراعى بقوة ، وقادنى الى خارج الغرفة .

– هيا بنا ، يانيتوتشكا . لقد انتهى كل شىء ، الحمد لله .

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا نظرة ارتياب . واجتاز أبى العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم أستطع أن ألحق به الا بصعوبة . وبعد أن سرنا فى الشارع حتى آخره ، وقفنا عند ضفة القناة . كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ، وكانت خطاى ترتعد ، وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال ثوبه . كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفعه ، وهو يوشك أن يسقط من الانزلاق .

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة . وأخيرا هبط أبى على الرصيف المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهدر على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق . ان الذعر الذى تملكنى فى تلك اللحظة سيبقى منقوشا فى نفسى الى الابد !.. ان ما حلمت به خلال السنة الماضية قد تحقق . ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقير . ولكن أين هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صوره

لى خيال الطفلة ، من أجل سعادة هــذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا مثل هذا العنف ، عميقا مثل هذا العمق ؟.. ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت أتساءل : « لمــاذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك شىء لا فائدة فيه ؟» . لقد كان هذا التفكير يعذبنى .

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الافــكار التى تشغل بالى ، فناديت أبى :

ـ أبت . أبت الحبيب .

ـ ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) .

ـ أبت الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبت الحبيب . لنعد الى البيت ، لنستدعى أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن واتته فكرة تحل جميع مشاكله :

ـ نعم يا نيتوتشكا . لا يمكن أن نفعـــــل هكذا . يجب الرجوع الى جوار ماما . ان الجو بارد عليها هناك . اذهبى اليها يا نيتوتشكا ، اذهبى اليها . ليست الغرفــة مظلمة . فهناك شمعة مشتعلة . لا تخافى . ادعى اليهـــا أحدا ، وارجعى . اذهبى وحدك . انى منتظرك . لن أتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعى .

ومضيت فورا ، الا أننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الوراء ، فاذا بى أرى أبى يهرب فى الجهة المعاكسة . لقد تركنى . تركنى

فى لحظة كهذه !.. فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ، وقد تملكنى خوف مجنـــون .. الا انه كان يركض أسرع منى ، وما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهث مهدودة القوى خائرة .. ووجدت قبعته فى الطريق . لقد سقطت عن رأسه وهو يركض . فحملت القبعــة ، وتابعت عدوى . شعرت بأنفاسى تتقطع ، وبساقى تترنحان تحتى . احسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لابد أن يكون أضغاث أحلام .. ان ما أعانيه لشبيه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شــخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهى به الامر الى الاغماء . **كانت تمزقنى مشاعر فظيعة . كنت أشفق على أبى : كان صدرى يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة ، بعيدا عنى ، بعيـــدا عن طفلته الحبيبة . كنت أود أن أدركه ، حتى أســـتطيع ان اعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى .. حتى أستطيع أن اطمئنه .. حتى استطيع أن أؤكد له أننى لن أعدو وراءه اذا كان لا يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى .** ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع . وحين دخلت فى هذا الشـــارع فى أعقابه كنت أراه أمامى . الا أن قواى خانتنى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ . وما زلت أذكر أننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت بشخصين ، وقفا فى وســـط الرصيف ، وأخذا ينظران الينا ، أنا وأبى ، دهشين . وصرخت مرة أخيرة :

ـ بابا . بابا .

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت . وأحسست بالدم يسيل على وجهى .. ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك بشىء .

***

وحين فتحت عينى ، وجدتنى على سرير دافىء جميل ، ورأيت الى جانبى وجوها لطيفة أفرحتها يقظتى . ورأيت سيدة مسنة ذات نظارات ، وسيدا طويلا ينظر الى وقد ظهرت على وجهه امارات شفقة عميقة ، ورأيت امرأة صبية جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك بيدى وهو ينظر فى ساعة . لقد بعثت الى حياة جديدة .

ان أحد الاشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسعور كان هو الامير « ك » ، وقد سقطت على عتبة منزله . وقد قرر هذا الامير الذى أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى « س » ، قرر - حين عرف من انا ، بعد بحث طويل متعب - أن يحتفظ بى فى بيته ، وأن يربينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة . **وبحثوا عن المصير الذى آل اليه أبى ، فعرفوا أنه عثر عليه فى ركن من أركان احدى الضواحى ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث مات بعد يومين .**

الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها . كان لابد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه - فى طرفة عين ، كسراب مبهم فارغ - كل ما كان يشده الى

الحياة .. حين تبدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع فى حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها . لقد تجلت له الحقيقة ساطعة لتريه مدى ضلاله . لقد سمع ، فى ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لاشىء . فحكمت عليه هكذا بالموت .. حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع . الفنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية . ان كل ما كان يقلقه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد . كل ما كان يراه مقبلا ، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات . الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة أن ينظر الى الامور ، على حقيقتها ، وجها لوجه ، وأن يرى المصير الذى رسمه لنفسه . **فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حدا أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة ..** على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف . كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وهاهى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انها ضربة قاضية . **كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره**

ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه . زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها .. ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خـلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن يتمنى موتها ، باعتباره منقذا له ، قد ماتت أخيرا .. ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه أحد ، وقد زالت عماوته ، وتملكه حزن مهلك. أراد أن يحكم على نفسه ، أن يحكم على نفسه بقسوة لا ترحم، بقسوة من يحكم حكما لا تحيز فيه . الا أن قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التى عزفهاالموسيقى العبقرى « س » .. !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سنين .. وها هو ذا الآن ينقض عليه بغتة !

- ٤ -

لم أسترد صحتى الا بعد مدة طويلة . وحين استطعت أن أترك سريرى نهائيا ، كانت ذاكرتى ما تزال من الوهن بحيث اننى ظللت مدة طويلة لا افهم ما صرت اليه . كنت فى بعض اللحظات أحسب أننى فى حلم ، وتمنيت أن يكون كل ما وقع لى حلما من الاحلام . كنت ، اذا جاء المســاء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فاذا بى فى مسكننا البائس ، بين أمى وأبى .. الا أننى أدركت شـيئا فشـيئا أننى وحدى ، واننى أعيش عند غرباء .

شعرت أخيرا أننى يتيمة .

وأخذت أتأمل ، فى كثير من الشره ، ما يحيط بى من أشياء جديدة على كل الجدة ، فبــدا لى كل شىء ، فى أول الامر ، غريبا عجيبا محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العـــادات الجديدة ، هذه الحجرات الفخمة فى قصر قديم من قصــور الامراء . مازلت أرى هذه الحجرات واسعة ، عالية ، مترفة، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكنى الخوف حين أجتاز احداها ، وأشعر أننى لابد ضائعة فيها . لم أكن قد شفيت تماما بعد ، كان خوفى المستتر منسجما تمام الانسجام مع هذا المسكن الحزين ، على روعته وجلاله . ثم ان حنينا قويا عنيفا كان ما ينى ينفذ عميقا الى قـلبى الفتى . كنت

أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ، أو أمام مرآة ، أو امام مدفأة من المدافىء الانيقة الصنع ، أو أمام تمثال يخيل الى أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق فى وتخويفى . كنت أتسمر ، ثم انسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيم أفكر ، حتى اذا عادت الى ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث كان قلبى يخفق خفقانا عنيفا .

بين الذين كانوا يعودوننى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب العجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى تأثيرا كبيرا . كان وجهه رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة . كنت أوثر وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته ، الا أننى لم أجرؤ على ذلك . كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث قليلا ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف فى شفتيه يوما أضعف ابتسامة . كان ذلك الشخص هو الامير « ك » نفسه ، الذى حملنى من الشارع وأسكننى فى بيته . كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة النقاهة . وفى آخر مرة زارنى فيها حمل الى حلوى وكتاب وصور . ثم قبلنى ، ورسم على اشارة الصليب ، وطلب الى أن أحاول المرح ، وأنبأنى – على سبيل التشجيع – انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سنى ، هى ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو . ثم التفت الى فرنسية متقدمة فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشؤونى ، فأوصاهما بشىء يتعلق بى . ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة . كان

الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس . وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها . **ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كأنما هو غائب . الا أن كلا منهم كان يحترمه . أن المرء ليشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشىء .** وكأنما كان يدرك هو نفسه أنه ليس كغيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا . (ولسوف أتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) .

وفى ذات صباح ، جاءوا لى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بثوب من الصوف الاسود مزين ، أخذت أرمقه دهشة قلقة . ثم أنزلونى ، بعد أن أتموا زينتى ، الى جناح الاميرة . طاش لبى حين رأيتنى أمامها . ولم يسبق لى فى حياتى ان رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد . الا أن انشداهى لم يدم طويلا . سمعت الاميرة تطلب الىأن أقترب ، وامتقع لونى . لقد قدرت ، وهم يلبسوننى ، أنهم انما يهيئوننى لامتحان خطير . لاأدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى . ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، وجرؤت عندئذ أن أنظر اليها . كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الاغماء . وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى القوة الكافية للاجابة على أسئلتها بأى شىء . وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكأن هذا المكان قد أعد لى خصيصا . كان واضحا أن الاميرة كان يسعدها أن

تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، الا أننى لم أفهـم هذه السـعادة التى تهبـط علىّ ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا . وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها ، من حين الى حين ، لتحدثنى ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة .

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفـل تافه ، مذعور ، خائف ، بل وغبى . وان غباوتى خاصة هى التى سـاءت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا بعد مدة قصيرة ، فلا شـك أننى مسئولة وحدى عن ذلك .

وفى نحو الساعة الثالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن أصبحت أكثر عناية بى ، وأكثر رقة معهم من ذى قبل . وأجابت على أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصة غريبـة جدا ، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية [illegible] . فكان الزائرون ، أثناء حديثها . ينظرون الى وهم يهزون رؤوسهم ، ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب . حتى أن شابا من الحاضرين أدار نظارته ليحدق فى . وحاول عجوز أشيب أن يقبلنى . وكنت أنا أرتجف ، واصفر ، وأحمر ، وظللت قابعة فى مكانى مطرقة ، لا أجرؤ على القيام بحركة . وكان قلبى منقبضـا يؤلمنى . أخذت أفـكر فى منزلنا البائس .. فى أبى .. فى سهراتنا الطويلة الصامتة .. فى أمى .. وحين تذكرت أمى فاضت عيناى بالدموع ، وانقبض حلقى ، وودت لو أهرب ، لـو أختفى ، لو أختبىء .. وما أن انتهت الـزيارات حتى

استعاد وجه الاميرة قسوته . فكانت لا تنظر الى نظرة رقيقة، وكانت تخاطبنى بخشونة . الا أن ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفتاها المشدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة .

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق . وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة . وفى صباح اليوم التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة . ولعل الاميرة قد ملت قص مغامراتى لزوارها ، واستنفد الزوار ، من جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على . ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سألتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى) .. وفى ذات مساء ، أرجعونى الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط . انتهى الامر ، لم يبق لى من حظوة لديها . الا أنه كان يسمح لى أن أطوف حيث أشاء من أرجاء البيت . ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفرط اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع أن أنعزل فى الطابق السفلى ، فى أعماق الحجرات الواسعة . وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفى أن ازعجهم أوثر تجنبهم . والذى كنت أحبه أكثر من كل شىء آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، لأغرق فى ذكرى ما وقع لى . ولكن العجيب فى

الامر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى . كانت تخطر أمامى صور ووقائع .. والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى . كنت أتذكر كيف دبرت له المال .. أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز . لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيهـــا أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهـرى قشـــعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ، ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقـــان قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى .

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق انهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهـر عليهم ذلك . لقد كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لايزعجـونى فى شىء ، وأمر مع ذلك أن لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو أحد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفة التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع أن أفهم له سببا ، **كنت أعتقد أنهم يراقبوننى لقصـــد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهـد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أختفى فيه عند الضرورة** . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سـلم واسـع من رخام

استعاد وجه الاميرة قسوته . فكانت لا تنظر الى نظرة رقيقة، وكانت تخاطبنى بخشونة . الا أن ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفتاها المشدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة .

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق . وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة . وفى صباح اليوم التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة . ولعل الاميرة قد ملت قص مغامراتى لزوارها ، واستنفد الزوار ، من جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على . ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سألتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى) .. وفى ذات مساء ، أرجعونى الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط . انتهى الامر ، لم يبق لى من حظوة لديها . الا أنه كان يسمح لى أن أطوف حيث أشاء من أرجاء البيت . ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفرط اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع أن أنعزل فى الطابق السفلى ، فى أعماق الحجرات الواسعة . وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفى أن ازعجهم أوثر تجنبهم . والذى كنت أحبه اكثر من كل شىء آخر هو أن انطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، لأغرق فى ذكرى ما وقع لى . ولكن العجيب فى

الامر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى . كانت تخطر أمامى صور ووقائع .. والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى . كنت أتذكر كيف دبرت له المال .. أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز . لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيهـــا أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهـرى قشـــعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ، ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقـــان قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى .

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق انهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهـر عليهم ذلك . لقد كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لايزعجـونى فى شىء ، وأمر مع ذلك أن لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو أحد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفة التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع أن أفهم له سببا ، كنت أعتقد أنهم يراقبوننى لقصـد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهـد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أختفى فيه عند الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سـلم واسـع من رخام

فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائع الخزف . وفى نهاية كل طبقة منه جلس حارسان طويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم استطع ان افهم لم يجلسان هنالك ، ينظر احدهما الى الآخر ، دون ان يقولا شيئا ، ودون أن يعملا شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الاعلى . كانت تعيش هنالك عمة للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولم تكن ترى أحدا . لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها ان لم تكن أهم شخصيات المنزل ، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ، ذات النظرة الشامخة الآمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى الصباح ، ويدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على مسبحتها . وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمة ، اذ كانت العمة تنهض فجأة ، وتقبل الاميرة على شفتيها ، وكان ذلك يعنى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الامر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى

من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أنباء العمة . ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . **لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو** . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت « ل » ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة ، وأن تتصالح مع أختها الاخرى ، الاميرة « ك » ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال ، أن يتفاهمن يوما واحدا ، واردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، تركت وراءها كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يحتفظون لهاته السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الاختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة « ك » ، وهى

الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» . وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الامير . كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بموسكو ، يواسيانها فى وحدتها . ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها حبا هائما ، فانها لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنهما طوال مدة الحداد . نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ؛ الا انه كان مشرفا على الانتهاء .

وكانت الاميرة العجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينه ياقة صغيرة بيضاء تضفى عليها حقا هيئة راهبة . ولم تكن تترك سبحتها ، وكانت تمضى الى الصلاة فى كثير من الفخامة والجلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار . ومن الكنيسة ، وتقرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة . **وكان الصمت فى الطابق الاعلى رهيبا . كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الآنسة العجوز أحد الخدم تسال عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرهفة السمع كأذن صبية فى الخامسة عشرة !) . وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشون على رؤوس الاصابع .** وحتى الفرنسية المسكينة اضطرت ، رغم سنها ، أن تتنازل عن حذائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب

ممنوعة فى الطابق العلوى . وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ الخ .. فأسرعوا فى الاجابة على سـؤالها باحترام عظيم . عندئذ أرسـلت تسأل الفرنسية مرة أخرى ، عن السبب فى أنها لم ترنى بعد . فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويغسلون وجهى ويدى ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلموننى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ، وأوصونى بأن أكون ألطف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التأنيب والتقريع . ثم أرسلوا رسولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة . فقيـل للرسول كلا ، وأمر بأن أحضر اليها فى الغد بعد الصلاة . لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعد اننى هذيت . كنت أرانى أصلى بلا انقطـاع ، أمام السيدة ، استرحم عفوها وغفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثول بين يديها .. فرأيتنى أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير . وأشارت الى أن أتقدم ، ووضعت نظاراتها على عينيها ، لترانى من كثب . أذكر أننى لم أفز باعجابهـا أبدا . وتفضلت فقالت اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد . وانهالت على بأسـئلتها ، فكنت لا أكاد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ، انفجرت باكية . وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد . وظنت مع ذلك أنهـا تواسينى اذ أمرتنى أن افوض أمرى الى الله ، وان اضع

أملى فيه . ثم سألتنى عن المرة الاخيرة التى ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هـــذا ، لان تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ،ظهر على العجوز امتعاض لا يوصف. واستدعيت الاميرة الشابة ، وعقد اجتماع قررو! فيـــه أن يقودنى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم ، وتعهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها . الا انها أمرت فى الوقت نفسه بأن أنصرف ، لان رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا .

لم أر فى كل هذا شيئا خارقا ، وانا فيمـــا انا فيه . الا أن الشىء المحقق الذى لا ريب فيه هو انها كرهتنى جدا . وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكثر من الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة فى مـــكانى لم أتحرك . لقد خلقت السيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسلت تبدى هذه الملاحظة عينها . **الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدى فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصيننى فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بى وهن فريسة رعب هائل .**

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية . ولكننى سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى اننى لا أزعج أحدا .

وفى ذات مرة ، كنت جالسة فى احدى هـــذه الحجرات السفلى ، مطرقة الراس ، مسندة وجهى الى يدى ، منـــذ ساعات ، أفكر ، وافكر . لم يكن عقلى من النضـــج ولا من

القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزنى ، الذى كان مع ذلك يزداد ويزداد حتى ليخنقنى . وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامى :

— ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير . وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة . فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح فى نظرتى الهلاك والبؤس ، ترقرقت فى عينيه الزرقاوين دمعة .

وقال وهو يداعب رأسى :

— مسكينة أيتها اليتيمة .

فصرخت وأنا أشهق :

— كلا . كلا . كلا . لست يتيمة .

ونهضت ، ووثبت اليه ، فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

— كلا . كلا . لست يتيمة .

— ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتى الصغيرة ؟ يانيتوتشكا المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقى :

— أين أمى ؟ أين أمى ؟

ولم أستطع أن أخفى حزنى ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

— أين أمى ؟ قل لى أين هى !

— سامحينى يا صغيرتى ! آه . يا بنيتى المسكينة ..

فيها اذن كنت تفكرين .. ماذا صنعت ! تعـــالى معى ، يانيتوتشكا ، اسرعى .

وأمسك بيدى ، وجرنى بخطى سريعة . كان متأثرا الى اعماق نفسه . ودخل بى أخيرا فى غرفـة لم أكن أعرفهـا بعـــد .

كانت تلك الغرفة هى غرفة المصلى . انها مظلمة ، فيما عدا القناديل الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار الكريمة فى الايقـــونات . وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ، ينظرون الى فى غموض. لا شىء فى هذا المكان يشبه الحجرات الاخرى . ان جوها جو سرى ، وقور ، حتى أن نفسى تملكها شعور قريب من الخوف. وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعى فى الحالة الصحية التى كنت فيها . وبادر الامير فأركعنى أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبى ، وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

— صلى ، ياصغيرتى ، صلى ، سنصلى معا .

ولكن لم يسعفنى اى دعاء . كنت منفعلة جدا ، خائفـة جدا كذلك . تذكرت كلمات أبى ، فى تلك الليلة الاخيرة ، أمام جثمـــان أمى ، وانتابتنى أخيرا نوبة عصبية . ورجعت الى السرير مريضة . وكدت أموت أثناء هذه النكسة . واليكم كيف جرت الامور :

فى ذات صباح قرع سمعى اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريرى ، فارتعـــدت . وهاجمتنى الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهـــذيان أبحث فى

ذاكرتى ، وأحلم ، وأتعذب . وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم فى الغرفة . كان القنديل قد انطفأ ، وكانت الخادمات قد مضين ، مع ان العادة أن يبقين الى جانبى . وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد . كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتى الى . لا أدرى أى شعور اجتاحنى فى تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس فى دماغى المريض على حين غرة : رأيتنى أنهض من سريرى ، وأرتدى ثوبى الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن املك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقى . لم ألق أحدا ، لا فى الغرفة المجاورة ، ولا فى الغرفة التى دخلتها بعد ذلك . ووجدتنى اخيرا فى الممر . اقتربت الاصوات . فى وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن اهبط عليه الى القاعات الكبيرة . ان الانوار تتلألأ فيه ساطعة . وسمعت وقع اقدام فى أسفل فانزويت فى ركن حتى لا أرى . ولم أدخل فى الدهليز الا حين اعتقدت أن احدا لن يرانى . كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة . وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبىء بوجود عدد من الناس كبير . كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزى . رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه . كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت لاأكاد أقوى على الوقوف على قدمى . غير اننى استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن املك زمام انفعالى ، وجازفت فرفعت ذيل

الستار الثانى . يا الهى ! تلك القاعة الواسعة المظلمة التى كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النور أغرقنى . وعشيت عيناى من شدة النور ، فقد تعودتا على الضوء الخفيف .

وهب على وجهى هواء عطر ، دافىء . كان الناس فى داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا فى وجوههم جميعا . والنساء يرتدين أثوابا ناصعة مترفة . لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور . وتجمدت فى مكانى من فرط الدهشة . كان يبدو لى مع ذلك أن قد سبقت لى رؤية هذا كله ، فى مكان ما ، فى الحلم .. وتراءى لى بيتنا الحقير ، عند المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق بفوانيسه الساطعة ، والنوافذ المقابلة بستائرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتصهل ، والطيوف على النوافذ .. وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها . قلت فى نفسى : « آه . هذه هى الجنة . هنا الجنة اذن . هذا هو المكان الذى كنت أريد أن أمضى اليه مع أبى المسكين . لم يكن ذلك حلما !.. لقد رأيته هكذا تماما ، فى الماضى ، فى خيالى ، فى أضغاثى . » وازدادت نفسى التهابا ، على التهابها بحمى المرض .. وتفجرت من عينى دموع حماسة لا توصف .. وطفقت أبحث بنظرى عن أبى . قلت فى نفسى ، وقد وثب قلبى ، وتقطعت أنفاسى : « لابد أن أبى هنا . انه هنا حتما . » وفجأة سكتت الموسيقى ، وماجت القاعة . وسمعت همسا من كل صوب .

واخذت أحدق فى كل الوجوه التى كانت تمر أمامى ، جاهدة أن أعرف احدا . وفجأة اجتاح القاعة اضطراب شديد جدا . فلمحت على المنبر شيخا نحيلا طويلا بمسك بكمان . كان وجهه الشاحب يبتسم ، وكان ينحنى الى جميع الجهات فى تحية لطيفة . وعاد الصمت . انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم . كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر . اخذ الشيخ كمانه ، وهز الاوتار بقوسه . بدأت الموسيقى . ولكنى لم ألبث أن شعرت بأننى أختنق . ان هذه الاصوات تزيد اضطرابى الى حد لايوصف . أصبحت لا استطيع أن اتنفس . اننى أعرف هذه الاصوات . لقد سمعتها من قبل . ان فيها انذارا ، انذارا بشىء رهيب ، غريب ، يتضح الآن فى أعماق نفسى . وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف . ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب . انها صلاة تهوى الى اليأس .

كان كل ذلك يصبح مألوفا لدى أكثر فأكثر . الا أن قلبى كان يأبى أن يصدق . وشددت أسنانى بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع . وكنت فى بعض الاحيان اغمض عينى ثم أفتحهما ، آملة اننى سأخرج من حلم لأجد نفسى فى منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، فى الليلة الفظيعة . وكنت اذا فتحت عينى ، أحدق فى الجمهور لاتيقن . كلا . هؤلاء الناس آخرون ، هذه وجوه أخرى . وبدا لى ان كل واحد من الجمهور ينتظر - مثلى - حدثا ، وانهم جميعا ، مثلى ، غارقون فى غم عميق . بدا لى

انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهـــذه الانات ، ليخففوا العبء عن نفوسهم . الا ان الآهات والانات تزداد حدة ، وألما ، وعمقا . وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت . **لم يبق من شك . انهـــا تلك الصرخة عينها . انني اعرفها . لقد ســـمعتها . هى الصرخة التى صعقتنى فى تلك الليلة** . ومر برأسى خاطـر كالبرق : « بابا . بابا . انه هنا . هو الذى يدعونى . وهذا كمانه ! » .. وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة . وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا . وانشق صدرى عن شهقة قوية صارخة . لم أطق أن أحبس نفسى ، فرفعت الستار ، وانطلقت فى الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

– بابا . بابا . أهذا انت ؟ أين انت ؟

لا أدرى كيف وصلت الى الشيخ الطويل . لقد تركونى أمر ، وأفسحوا الطريق أمامى . وارتميت عليه بصرخة هائلة. كنت أعتقد أننى اقبل ابى . وفجأة شعرت بيدين نحيلتين طويلتين تمسكان بى . **ورأيت عينين ســوداوين تحدقان فى عينى ، كانهما تحرقانى بلهيبهما . نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجاة : ((كلا . ليس هذا بابا . هذا قاتله !)) وتملكتنى حميا هائلة . وخيل الى أننى أسمع ضحكا فوق رأسى ، وان هذا الضحك يترجع فى القاعة كلها . ثم لم أشعر بشىء ..!**

———————

- ٥ -

كانت تلك نكستى الثانية والاخيرة .

حين فتحت عينى رأيت وجه طفلة منحنية على ، وجه صبية فى سنى ، فما أن رأيتها حتى مددت لها ذراعى . منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها عاطفة رقيقة فرحة . تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية ، جمال مشرق يأسر البصر ، وجها من تلك الوجوه التى تنفعل أمامها اعجابا ، من تلك الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتتانك . ذلك هو وجه « كاتيا » ابنة الامير التى عادت من موسكو . فلما مددت اليها ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة ، وشعرت بارتياح كبير ينفذالى اعماق كيانى .

ونادت الاميرة الصغيرة أباها ، وكان على بعد خطوتين يتحدث مع الطبيب .

قال ، وقد أمسك بيدى ، واشرق وجهه اشراقه الفرح الصادق :

ـ الحمد لله !

ثم اردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

ـ اننى سعيد ، سعيد جدا . جدا . هذه كاتيا ابنتى .

لتتعرف كل منكما الى الاخرى . هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعيدى صحتك بسرعة ، يانيتوتشكا . أيتها الصغيرة الشيطانة التى اخافتنى كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتى بسرعة كبيرة . وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن انهض . وكانت كاتيا تأتى الى قرب سريرى ، كل صباح ، باسمة مرحة . كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها . وكان ظهورها هو السعادة عينها لى . آه ! كم وددت لو أقبلها . الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق . انها لا تستطيع أن تستقر فى مكان . لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجع الاصداء فى البيت كله . كان ذلك حاجة لها ملحة . لذلك أوضحت لى منذ زيارتها الاولى أنه لاشىء يزعجها كالجلوس الى جانب سريرى ، وأنها لهذا لن تأتى الا نادراً ، وانها ستأتى مع ذلك لأنها تشعر نحوى بالشفقة ، واننى سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضى ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل . كانت الكلمة الاولى التى توجهها الى كل صباح هى هذا السؤال السريع :

— هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة ، رغم كل شىء ، وكانت الابتسامة لاتجد سبيلها الى وجهى الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مغتاظة .

– غريب . مع اننى قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك . فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

– كلا . لايطعموننى كثيرا .

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها . لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة .. وكان افتتانى بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم . فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان يتفق لى – حين تمضى الى سبيلها – أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! .. **كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقتى ، فألعب معها ، وأخاتلها ، ونبكى معا اذا أنبنا أحد على خطيئة ما . الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بمعشوقه . وكنت أرغب رغبة جنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، نزولا على نصيحتها .**

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شىء : « مازلت مريضة ؟ مازلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة . كانت كاتيا تشعر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا مؤلفا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائى .. حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

– هل تريدين أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

– نعم . هاتى .

وكانت الاميرة الصغيرة بعد أن تسألنى عن صحتى ، تجلس الى جانبى وتأخذ تحدق فى بعينيها السوداوين . وفى أول الأمر كانت تفحصنى هكذا فى كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة . الا ان حديثنا لم يكن يجرى متصلا هينا . فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت برغم أننى أموت شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها .. فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

– لماذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يبدأ بها الحديث :

– وأبوك ، كيف حاله ؟

– حاله حسنة . شربت اليوم فنجانين من الشاى بدلا من فنجان واحد . وأنت ؟

– فنجان واحدا .

ويعود الصمت .

– اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى .

– أهو كلب ؟

ـ نعم . كلب .. أما رأيته ؟

ـ بلى . رأيته ؟

ـ اذن لماذا تسألين هل هو كلب ؟

.. ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الى الاميرة الصغيرة دهشة :

ـ قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

ـ جدا . تعالى أكثر مما تجيئين .

ـ قالوا لى أن مجيئى يسرك . ولكن غادرى فراشك بسرعة . سآتيك اليوم بفطيرة . هذا وعد أكيد . ولكن ماذا بك حتى تصمتى هكذا ؟

ـ لاأعرف .

ـ الا تنقطعين عن التفكير ؟

ـ نعم أفكر فى أشياء كثيرة .

ـ أما انا فيقولون عنى أننى أتكلم كثيرا ولاأفكر فى شىء . هل الكلام اساءة ؟

ـ أبدا . أبدا . اننى أسر حين تتكلمين .

ـ يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار . انها تعرف كل شىء . ولكن فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

ـ فيك انت .

ـ هل يسرك هذا ؟

ـ نعم .

ـ اذن فانت تحبيننى !

ـ نعم .

ـ أما أنا فلا أحبك بعد . انك نحيلة جدا . انتظرى ، سآتيك بفطيرة . الى اللقاء . الى اللقاء .

..وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقبيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة .

ومع ذلك فقد أتتنى بعد الفداء بالفطيرة التى وعدتنى بها . جاءت الى كالمجنونة ، وهى تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما منعت عنه !

ـ كلى . انه طعامى احتفظت به لك . والآن الى اللقاء .

وغابت بمثل السرعة التى أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبى ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الفداء . كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان ببريق قوى . لاشك أنها كانت تركض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين .

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى العابها على الفور :

ـ هل تعرفين اللعب بالكرة الطائرة ؟

ـ كلا .

قلت ذلك وانا اشعر بأسف مر على اننى لا أستطيع أن أقول نعم .

ـ طفلة عجيبة حقا ! هيا . ابلى من مرضك، وسأعلمك .

جئت لأسألك هـــذا فحسب . اننى ألعب الآن مع مدام ليوتار . الى اللقاء . انها تنتظرنى .

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى ، رغم كونى ضعيفة ، مجردة من القوة . **وكانت أول فكرة راودتنى عندئذ هى أننى لن أنفصل بعـد الآن أبدا عن كاتيـا . ان عاطفـة لا تقاوم تدفعنى نحوها . كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هـــذا يثير دهشتها كثيرا . كان انجذابى اليها من القوة بحيث اننى استسلمت لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا** . وبدا لها ذلك فى أول الأمر شيـئا غريبـا بل عجيبا . وأذكر أننى ، ذات مرة ، وكنا نلعب معا ، رأيتنى أرتمى على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هذه الرغبـة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت منى وأمسكت بيـدى ، وقطبت حاجبيها كأننى أهنتها ، وسألتنى :

ـ ما بك ؟ لماذا تقبليننى هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المباغت ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطيع أن أجيب بكلمـة . فهـزت الاميرة الصغـيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيهـــا الممتلئتين ، فى جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان . فجلست على أحد المقاعد . وظلت فى ركنها ذاك مدة طويلة تتأملنى ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة . وهذا ايضا كان عادة

من عاداتهـا فى اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خـلال مدة طويلة أن أتلاءم مع وثبات طبعها المفاجئة .

واعتقدت أننى أخطأت ، وأيقنت على كل حال أن هـذا لابد أن يبـدو غريبـا . على أننى ظللت أتعـذب ، فكنت أتساءل : لمـاذا لم أستطع أن افوز منذ اللحظة الأولى ، وإلى الأبد ، برضى كاتيا .. وأن أصبح صديقتها .

كان اخفاقى هذا يحرقنى حرقا ؛ وكنت أشعر أننى على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية، أو كلما نظرت الى نظرة حذرة . وكان حزنى يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لاتجرى مع كاتيا سهلة يسيرة. **وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحبنى أخذت تكرهنى . ان كل شىء ، لدى هـذه البنيـة ، يتم بصـورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن تقول وحشيـة ، لولا أن لطفا مفطورا كان يثوى وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التى تصدر عن طبع متحمس صادق .**

والواقع أن ماشعرت به نحوى فى أول الأمر كان نوعا من الشك ، لم يلبث أن انقلب الى احتقار ، والسبب فى هـذا الاحتقار ، فيما يخيل الى ، هو أننى لم أستطع أن أشاركهـا فى ألعابهـا المختلفة . كانت الاميرة الصـغيرة تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقـة ، بينما كنت أنا نقيض هـذا تماما . لقـد ظللت بعـد مرضى

ضعيفة ، هادئة ، غارقة فى التفكير والصمت . لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب .. أى لم أكن أملك أى شىء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا . ثم اننى بطبيعتى لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى . واذا شعرت بشىء من ذلك فسرعان ما ينتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السىء الذى تركته فى نفس غيرى : بأثر حسن . ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان كرهه الى غير رجعة .. وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظت ، بعد ان ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الى على عادتها نظرة استغراب . أما أنا فشعرت أننى أوشك أن اجهش فى البكاء . وبعد أن فكرت فى أمرى مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الى كلمة واحدة خلال أيام طويلة ! .. وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا اكاد أطيق احتماله . وثقلت على وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة . ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود ...

ولاحظت مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها

اياى . لذلك اتجهت اليهـا رأسا ، وأنبتهـا على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى . الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنهـا لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضـل لها أن تنتظر أخاهـا « ساشا » الذى سيعود من موسكو عما قريب ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع .

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب . فنبهت كاتيا الى أننى ما زلت مريضة ، واننى لا أستطيع أن أكون فى مثـل مرحها وصخبها . بل أضافت الى ذلك أن هدوئى خير من حركتها ، لأن كاتيا تتجاوز الحدود : أليست ترتكب كثـيرا من الحماقات ؟ ألم توشك ، أول أمس ، أن يفترسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وأرسلتها الى – لمصالحتى – فورا .

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئا جديدا وصحيحا من وراء هـــذا التأنيب . ثم مالبثت أن تركت العجلة التى كانت تجرى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وسـألتنى دهشـة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

– هل تريدين حقا أن تلعبى ؟

– لا ..

قلت ذلك من فرط خوفى عليهـــا وعلى من تأنيبات مدام ليوتار .

ـ اذن ماذا تريدين ؟

ـ أفضل أن أظل جالسة . اننى لا أستطيع أن أركض . ولكن لا تغضبى ياكاتيا ، اننى أحبك كثيرا .

ـ حسنا ، اذن سألعب وحدى ..

قالت ذلك فى رقة ونعومة ، وفى لهجـــة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب . ثم أضافت :

ـ والآن ، الى اللقاء . ولن أغضب منك .

فأجبت وانا أنهض وأمد لها يدى :

ـ الى اللقاء .

ـ لعلك تريدين أن تقبلينى ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلها تذكرت فيها المشكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك . وكان واضحا أنهـا تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة وعلى أحسن نحو .

قلت فى رجاء خجول :

ـ اذا شئت .

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجهها طـابع الجـد ، ولم تختلج شفتاها بابتسامة ، ومنحتنى قبلـة . فلما أتمت هكذا كل ما طلب منهـا ، بل أكثر مما طلب منها ، اسعادا لهـذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة .

وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الفرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها . ودام الأمر على هذه الحال الى أن عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها الفضة . وظلت طوال السهرة تنظر الى فى ارتياب وحذر . كان واضحا اننى أبدو لها طفلة عجيبة شاذة ، وكان واضحا انها تود أن تسائلنى مستوضحة أمرى . ولكن لا أدرى لم أمسكت فى هذه المرة ..!

وكانت دروس كاتيا ، عادة ، فى الصباح . وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية ، ولو ان تعليم الفرنسية هذا كان عبارة عن تكرار قواعد النحو ، وقراءة اقاصيص لافونتين . ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة خلال ساعتين فى كل يوم . لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة . وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا، **غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الامور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لأنها تشعر أن السؤال عار !...** وقيل أنها كانت فى بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله .. وكان يغضبها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضى الى مدام ليوتار لتستنجد بها ، الا فى أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا

تاما . وكان أمرها يجرى على هذا النحو فى كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة . ولكنها فى الوقت نفسه مسرفة فى السذاجة بالنسبة الى سنها . وكانت فى بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفى أحيـــان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة ..

وأخيرا أصبحت صحتى تسمح لى بأن أتعلم شـيئا أنا الاخرى ، فامتحنتنى مدام ليـــوتار لتعرف مقـــدرتى ، فاكتشفت أننى أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنى أكتب كتـابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمـكان أن تعلمنى الفرنسية حالا .

لم أحتج على ذلك .. وذات صباح ، رأيتنى جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة العمل . وأظهرت كاتيا ، فى هذه المرة ، كأنما عن قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتهـا مدام ليوتار !.. أما أنا فقد تعلمت الابجدية الفرنسية فى هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضى معلمتى بكل ما أوتيت من قوة . وفى نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبة جدا من كاتيا ، فقالت لها وهى تشير الى :

ـ انها مريضة تدرس لاول مرة ، ومع ذلك فقـد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت انت . ألا تشعرين بالخجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

ـ اذن فهى تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انهـا ما زالت تتعلم الابجدية ..

– كم درسا استغرقت أنت فى تعلمها ؟

– ثلاثة ..

– أما هى فقد استغرقت درسا واحدا . معنى هذا انها أسرع منك فى التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل . أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين ادركت أن مدام ليوتار على حق . هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سواء لذنب اقترفته أو لاخفاق فى الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة . وفى هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الى كأنها تريد أن تصعقنى ..

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما . وحين بعدنا عن عينى مدام ليوتار أردت أن أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبى ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بانها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة .

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التى كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا أفكر الا فيها . كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى . ونظرت الى ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة . ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها

نظرة مستفهمة .

فسألتنى كاتيا :

ـ هل تحسنين الرقص ؟

ـ كلا .

ـ انا أحسنه ..

صمت ..

ـ هل تحسنين العزف على البيانو ؟

ـ كلا ..

ـ أنا أحسنه . والواقع أن تعلمه عسير ..

صمت ..

ـ تقول مدام ليوتار انك أذكى منى .

ـ كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك .

ـ وبابا هل يستاء أيضا ؟

ـ لا أدرى .

صمت جديد .

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها . ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

ـ اذن ستهزئين بى لانك أسرع فهما منى !

فصرخت وأنا أثب من مكانى لأسرع اليها وأقبلها :

ـ أبدا . أبدا .

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا

منذ خمس دقائق ، مخاطبة كاتيا :

ـ الا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه؟.. أسفى عليك يا آنسة . تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين الرقص والعزف على البيانو . أسفى عليك يا آنسة . سأروى هذا لأبيك !

والتهب خد الاميرة الصغيرة بحمرة قانية .. بينما استطردت المربية :

ـ هذا لا يليق . انك تعذبينها بأسئلتك هذه . كان أهلها أناسا فقراء فلم يستطيعوا ان يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها . وما تعرفه قد تعلمته وحدها لان لها قلبا نبيلا . يجب عليك ان تحبيها بدلا من ان تحقدى عليها. عيب . عيب . أذكرى أنها يتيمة ، وان ليس لها أحد فى هذا العالم . لم يبق الا ان تدلى عليها بأنك أميرة ، وانها ليست بشىء ، سأتركك وحدك . فكرى فيما قلته لك ، واصلحى نفسك .

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! .. خلال يومين كاملين لم تدو قهقهاتها وصرخاتها فى البيت . وكنت اذا استيقظت فى الليل ، أسمعها تتم فى المنام حديثها مع مدام ليوتار . لقد ضعفت خلال هذين اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه . وأخيرا ، فى اليوم الثالث ، التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل . كانت الاميرة الصغيرة خارجة من غرفة أمها ، فلما رأتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبة

منى . وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

ـ نيتوتشكا ، لماذا أنبونى ، بسببك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

ـ لم يكن ذلك بسببى .

ـ ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

ـ كلا ، يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى .

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول . ثم سألت بعد لحظة من الصمت :

ـ ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

ـ لن أبكى اذا شئت .

ومرة أخرى هزت كتفيها .

ـ ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب .

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

ـ ولماذا أنت فى بيتنا ؟

فنظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى . ولم أستطع أن أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى . قلت :

ـ لأننى يتيمة .

ـ وكان لك بابا وماما ؟

ـ نعم .

– وكانا لا يحبانك ؟

– بلى . كانا يحبانى .

قلت ذلك بصعوبة .

– وكانا فقيرين ؟

– نعم .

– فقيرين جدا ؟

– نعم .

– ولم يعلماك شيئا ؟

– بلى . علمانى القراءة .

– هل كان عندك لعب ؟

– لا .

– هل كنت تأكلين فطائر ؟

– لا .

– ماعدد حجرات بيتكم ؟

–حجرة واحدة .

– حجرة واحدة ؟

– واحدة .

– والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

– لا .

– ومن كان يخدمكم اذن ؟

– كنت أنا أشترى الاشياء من السوق .

كانت أسئلة كاتيا تؤلمنى أكثر فأكثر . ثم ان هذه الذكريات،

ووحدتى ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يبدو لى أنه رتب خصيصا ليجرحنى ، ليدمى قلبى ، كنت ارتعش من اخمص قدمى الى قمة راسى ، واختنقت بدموعى .

ــ اذن فأنت سعيدة بوجودك فى بيتنا .

لم أجب .

ــ وهل كان لك ملابس جميلة ؟

ــ لا .

ــ كانت ملابسك بشعة ؟

ــ نعم .

ــ لقد رأيت فستانك .

فما أن سمعت هـذا حتى رأيتنى أنهض من مكانى تحت تأثير احساس غريب ، وأقول :

ــ لماذا تسألينني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهى حنقا :

ــ لماذا تستجوبيننى هكذا ؟ لماذا تسخرين منى ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانية ، ونهضت من مكانها هى الاخرى ، الا أنها لم تلبث ان سيطرت على انفعـالها ، وقالت :

ــ كلا لست أسخر منك . وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك حقا فقيرين .

فقلت وأنا أبكى ألما :

ــ لماذا تسألينني عن أبى وأمى ؟ لماذا تسألينني عنهما على

هذا النحو ؟ فيم أساءا اليك ، يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب . وفى هذه اللحظة دخل الامير .

فلما رآنى أبكى ، قال :

– ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ،وكانت بلون الجمر احمرارا ، وكرر على سؤاله :

– ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يانيتوتشكا ؟ فيم تشاجرتما ؟

ولكننى لم اكن أستطيع جوابا ، ورأيتنى أرتمى على يده اقبلها باكية .

– كاتيا ، لاتكذبى . قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

– قلت لها اننى رأيت فستانها الردىء الذى كانت تلبسه يوم كانت تعيش مع أبيها وأمها .

– من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

– رأيته بنفسى ، لم يرنيه أحد .

– حسن ، حسن . لاتريدين أن تشى بأحد . أنا أعرفك . أكملى كلامك .

– أخذت تبكى وسألتنى لماذا اسخر من أبيها ومن أمها .

ـ اذن فقد سخرت منهما .

لئن لم تسخر كاتيا من أبوى ، فقد كان ذلك فى نيتها قطعا . كما شعرت .

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها أنها تقر بخطئها . فقال لها الامير مشيرا الى :

ـ **ستعتذرين لها حالا .**

الا أن الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونها ، لم تقم بأية حركة . فقال الامير :

ـ اننى أنتظر .

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

ـ كلا . لا أريد . لا أريد . لا أريد أن أعتذر لها ، يابابا . اننى لا أحبها . ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن . ليس ذنبى أنها تظل تبكى طوال النهار . لا أريد . لا أريد !

ـ تعالى معى .

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته . والتفت الى قائلا :

ـ اصعدى ، يانيتوتشكا .

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يغفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة . فما أن بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى . واخذت أعد

الدقائق . كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لأرتمى على قدميها . وأخيرا عادت كاتيا . ولكنها مرت بجانبى دون ان تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الفرفة جلست فيه .

كانت عيناها حمراوين ، وكان خداها مبللين بالدموع . فماأن رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، واخذت انظر اليها فى رعب لم استطع من فرطه ان اتحرك .

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنبة . وهممت ، الف مرة ، أن أقترب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف خشية أن تسىء استقبالى .

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة . وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت فجأة الى ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها .

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة . ولكن ما أن انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الفرفة ، بعيدة عن أنظارى .

وأخيرا حزمت كاتيا أمرها . وهاهى ذات مساء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ،

وتقترب منى خجلة ، وتقول :

ــ أمرنى بابا أن اعتذر لك . هل تريدين أن تصفحى عنى ؟

وأمسكت كاتيا بكلتا يدى ، فقلت لها ، وأنا ألهث من شدة الانفعال :

ــ نعم ، نعم .

ــ وأمرنى بابا بأن أقبلك . هل تريدين أن تقبلينى !

وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع . وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفتيها لترتجفان ، ألاانها سرعان ماكبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها .

وقالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

ــ سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك .

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

ــ منذ ثلاثة أيام لم أره . لقد منعنى من المجىء اليه قبل أن أنفذ أمره .

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة .

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » . وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم . وطارت كتب الى الارض .. وانطلقت العجلة تدور من غرفة الى أخرى . ففهمت أن الصلح قد تم

بين الاب وابنته ، ووثب قلبى من مكانه فرحا بذلك .

الا ان كاتيا لم تقترب منى ، وكان واضحا انها تجهد ان لا تكلمنى . على أنها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، وكان ذلك يربكنى ويؤلمنى . اصبح جلوسها امامى ، متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم . واصبحت الملاحظات التى تبديها بصددى اكثر سذاجة مما كانت ! ان الشىء الذى لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويعبدها ، ويحتضنها ككنز جميل ، هو انها لقيتنى فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على ان ترانى ابدا . على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم . كان أبوها أكثر الناس تأثيرا فيها ، وكانت هى تحبه حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا . غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة . ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة . الا أن هذا لم يكن يمنعها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ احيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى . وكانت الاميرة الأم تفهم التربية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لاحد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! .. فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا .. وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع . على اننى سأعود الى هذا فيما بعد . وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف

تنظم علاقتها بأبويها : أما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة منطلقة لا تلف ولا تدور . وأما مع أمها فكانت منطوية على نفسها ، حذرة ، مطواعة . غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سنجيتها صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة . وسأشرح هذا أيضا فيما بعد . على أنه لا بد من القول — وذلك أمر يشرف كاتيا — انها انتهت أخيرا الى فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها من حب لاحد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! .. لقد كانت الاميرة الصغيرة التى لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه الناحية . الا أن هذا الحساب ، واأسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما بعد ، الا قليلا .

وكنت أنا لاأفهم ماذا بنفسى . كان كيانى يجيش باحساس جديد لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت أن ذلك كان يعذبنى كثيرا . والافضل أن أعترف بأن عاطفتى نحو كاتيا كانت هى العشق .. اغفروا لى استعمال هذه الكلمة . نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه وأفراحه ، العشق الهائم الجامح . **ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة** . كل شىء فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ؛ جميع عيوبها دخيلة عليها ، لاتنفك تصطرع مع نفسها الأصيلة . كل شىء فيها يلتمع برجاء

مشرق ، كل شىء فيها يبشر بمستقبل رائع ..

..ولم أكن أحبها وحدى . كان كل انسان يحبها . كان يتفق لنا أن نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما أن تقع علينا أبصار المارة حتى يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين . وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش لها .. » ذلك كان لسان حال كل من يراها . أما أنا فلعل الاحساس الجمالى هو الذى أثر فى قبل كل شىء آخر . لعل الشعور بالجمال هو الذى استيقظ فى نفسى فى تلك اللحظة ، فما ينبغى أن نبحث عن غيره علة لحبى لكاتيا .

.. على أن آفتها الاساسية كانت هى الزهو .. هذا الزهو الذى يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا . كان هذا الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صبيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا يبلغ من القوة أن أى تناقض ، مهما تكن صورته ، كان يدهشها أكثر مما كان يسيئها أو يغضبها . كانت لاتستطيع أن تقبل أن يتم أمر من الامور لم ترده . ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شىء . فما أن تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تذعن لتأنيب ضميرها دون مواربة أو تعلل . ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فاننى أسند ذلك الى نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! .. كان سلوكها هذا امرا لا مفر منه . كانت تستسلم لاندفاعاتها

فى كثير من الجموح ، وكان لا بد لها ، دوما ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعود الى الطريق القويم . ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميلة وصادقة ، الا أنها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة ..

ولم تلبث كاتيا أن شبعت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيرا أن تدعنى وشأنى .. وأصبح سلوكها سلوك من لايشعر بوجودى ، فما من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة .. وأبعدتنى عن ألعابها ، ولكن بدون قسوة . أقصتنى عنها ببراعة ، حتى لكأن هذا الاقصاء تم بارادتى !

وكانت الدروس تسير فى مجراها . ولكننى فقدت شرف الاساءة الى كبريائها ، حين كانوا يضربون بى مثلا على الذكاء والرقة ، مع أن هذه الكبرياء كانت من سرعة التأثر بحيث نه كان لكلبنا ، « سير جون فالستاف » ، سلطان كبير عليها . كان فالستاف ذا مزاج بارد ، الا أنه كان شريرا كنمر . فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه . وأكثر من ذلك أنه كان لايحب أحدا . الآن عدوه الاول ، عدوه الطبيعى ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب - وسوف تأتى قصة ذلك فى حينها - اما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف . كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحى الوحيد الذى

يستطيع ، فى هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها ، فلا يخضع لها ، لا يحبها !.. لذلك قررت أن تهاجم الكلب .
ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان .
ان كيف يجرؤ فالستاف أن يقاومها ؟

..غير أن الكلب العاصى لم يخضع .. ففى ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين فى القاعة الكبرى ، فى الطابق الاسفل ، جاء الكلب واستقر فى وسط القاعة ، ليستمتع بقيلولته . عندئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع فى تنفيذ خطتها . فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة ، على رؤوس الأصابع ، وهى تناديه بارق الاسماء ، وتدعوه اليها بألطف الحركات والاشارات . الا أن « فالستاف » كشر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة . ان ما كانت تريده هو أن تأتى اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التى كان أثيرا لديها .

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضى كثيرا من البراعة ، بل تشتمل على خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك . انه قوى ، كالدب ..

وكنت ارقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة . الا أن صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل . أن الأنياب التى كشر عنها فالستاف لم تستطع ان تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط

مستقيم ، أخذت تدور حوله حذره ، ولم يتحرك فالستاف. وبعد أن أنهت دورتها الاولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التى يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على « الديوان » تفكر .

وما هى الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جديدة : فاذا هى تخرج من الفرفة ثم تعود وفى يدها مكسرات وحلوى . لقد غيرت سلاحها . الا أن فالستاف لم يبال بهذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم يكن جوعان ، حتى أنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التى رمتها اليه . ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التى يعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته فى المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهم بحركة تدل على أنه مستعد لأن يثب من مكانه . فالتهب وجه كاتيا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التى كانت تمسكها ، وعادت تجلس فى مكانها ..

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعا لتتفجر من عينيها . ولما رأت أننى أنظر اليها ، غلى الدم فى رأسها ، فاذا هى تثب من مكانها فجأة فى اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد فى هذه المرة من الدهشة .

فترك عدوته تجتـــاز الحدود ، ولم يحى البنت الطائشة بهمهة مخيفة الا حين رآها قريبة جدا منه ، فتوقفت كاتيـا ثانية أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سـيرها بخطى ثابتـة . **تجمد الدم فى عروقى من شدة الذعر . كانت الاميرة الصغيرة فى حالة من الهياج ما رأيتها فى مثلها يوما . لقد كان اليقين من الانتصار يلهب عينيهـا . لم تحول نظرهـا عن الكلب الكاسر وهو يرمقها بنظرات غاضبـة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهددة** .. بينما انتصب الكلب . وانطلق من صـدره الكثيث هدير رهيب ، فقلت فى نفسى : لن تنقضى دقيقـة واحدة الا ويمزقهـا اربا ! .. الا أن الاميرة الصغيرة وضعت يدهـا الصغيرة عليـه فجأة فى اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت عليها خيـلاء الظفر . وظهر على الكلب نوع من التردد . كانت تلك أسوأ اللحظات . لكن الكلب لم يلبث أن نهض متثاقلا ، وتمطى ، ولعله قال فى نفسه انه لايليق به أن يقتتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة فى هدوء ووقار . وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتنى بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة بالنشوة ، نظرة من أسكرهـا الشعور بالنصر . وكنت أنا شاحبة شحوبا كبيرا . ولاحظت هى ذلك فابتسمت .الا أن وجنتيهـا أخـذتا تشحبان ، وما استطاعت أن تعود الى «الديوان» الا فى كثير من العناء . فتهالكت عليه فاقدة الوعى تقريبا .

منذ ذلك اليوم أصبح هواى لا يعرف الحدود . أصبحت

أخاف على كاتيـا خوفا شـديدا ، وأصبح الحزن يحرقنى حرقا . ألف مرة أوشكت أن أرتمى على عنقها وسمرنى الوجل فى مكانى . وكنت أحاول أن أتحاشاها حتى لا ترى انفعالى ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفـة التى كنت أظن أننى مختبئـة فيها ، أخذ قلبى يخفق خفقانا قويا حتى لأرى الأشياء أمامى تدور ! .. وأعتقد أن هذه البنيـة الشيطانة لاحظت الأمر ، لأنها ظلت خلال يومين بادية التململ . الا أنهـا لم تلبث أن اعتادت على ذلك ..

.. وانقضى شهر . كنت أتعذب فى سرى . ويجب أن أذكر أننا ، أنا وكاتيا ، لم نتبـادل خلال هـذه المدة كلهـا خمس كلمات ! .. الا اننى أدركت شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه عليها أنها نسيتنى أو أنها لا تحفل بأمرى ، وانمـا يمليه عليها قرار ارادى ، كأنما هى آلت على نفسها أن لاتدعنى أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك بلغت من العذاب اننى أصبحت لاأستطيع أن أنام ، وأصبحت لاأستطيع أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليوتار . أصبح حبى لكاتيا مرضا ! .. أذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلهـا خلسـة ، وفى مرة أخـرى سرقت أحـد أشرطـة شعرها ، وقضيت ليالى برمتها أقبلهما باكية ..!

انتهى الجـــزء الأول

ويليه الجزء الثانى والأخير

كتابي

يبدأ عامه الجديد بالعدد القادم (٩٧) حاملا اليك باقة ممتازة من الملخصات لمجموعة من أروع الكتب العالمية ، وفى مقدمتها كتاب العام :

رسائل فولتير الغرامية

الى .. من ؟

الكتاب الذى يكشف الستار عن ناحية كانت مجهولة فى حياة فيلسوف الثورة والحرية ..

حصل عليه المحرر من مؤلفه (شخصيا) عند زيارة المحرر لمعهد فولتير فى مدينة (جنيف) ، وقد أهداه المؤلف خصيصا الى قراء (كتابى) فى العالم العربى ..

طالعه ، مع عدد من أمتع الكتب الأخرى فى العدد القادم – ٩٧ – من كتابى .

عدد ممتاز – أوص البائع على نسختك من الآن .

أسس لأولادك هذه المكتبة

إن "مطبوعات كتابى" التى تقدم لك ولأفراد أسرتك ترجمة عربية دقيقة كاملة لأمهات الكتب العالمية التى تؤلف تراث الإنسانية الخالد على مر العصور، تكفل لابنك - أو ابنتك - أن يشب فيجد فى متناوله مكتبة عربية زاخرة بكتب الأدب المنتقاة، المترجمة عن أساطين المؤلفين فى شتى بلاد العالم، والتى تضم عصارة تجاربهم ومشاعرهم وانفعالاتهم.. وهكذا سوف يتاح لابنك أن يقرأ "تولستوى" و"جيته" و"ديكنز" و"ڤولتير" و"دانتى"، منذ نعومة أظفاره، بينما حرمت أنت فى شبابك الباكر من هذه المتعة.. فعندما أتقنت اللغات الأجنبية كنت قد بلغت سن العمل والزواج والمسئوليات، فضاعت منك فرصة الفراغ الطويل المنشود.. إلى الأبد!

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

مطبوعات كتابى

يصدرها: حلمى مراد

مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

قصة

دستويفسكي

الخالدة

نيتوتشكا

الجزء الثاني

فيدور دستويفسكي

نيتوتشكا

NITOTCHKA

.PAR

• *FEDOR DOSTOIVSKY*

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثانى والستون

نيتوتشكا

الجزء الثانى

ترجمة : سامى الدروبى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منهـا اثنان وستون كتابا (ومجلدان خـارج السلسـلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة
• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .
ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .
• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر بأذن بريد عادى .
وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـوالة بريدية .

ملخص الجزء الاول

تدور أحداث القصة على لسان فتاة روسية تدعى « نيتوتشكا » .. وتبدأ بسرد الأحداث التى وقعت لها منذ كانت طفلة فى التاسعة من عمرها :

« لا اتذكر أبى ، فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات . وتزوجت أمى من موسيقى يدعى « يافيموف » ، يتصف بالغرابة والشذوذ . وكان يعمل فى جوقة أحد ملاك الاراضى الاغنياء كعازف على (الكلارينيت) . ولم يلبث أن تعرف على موسيقى ايطالى علمه العزف على الكمان . فلما أتقن ذلك الفن ، هجر الجوقة معتزما الرحيل الى بطرسبورج . لكنه لم يبلغ هدفه ، اذ نفذت نقوده واضطر الى الالتحاق بجوقات الاقاليم ، وادمن على الشراب، وهجر كمانه ، الى أن جفت موهبته تماما . رغم أنه كان يعتبر نفسه أبرع عازف على الكمان فى العالم !

« وبعد فترة ، التقى بأمى ، التى كانت قد ترملت ، فاعتقد أن الالف روبل التى تملكها كفيلة بأن تحقق أحلامه ، فتزوجها ! .. لكنه استمرأ حياة التسكع والكسل ، وفقد ثقته فى نفسه ، وفى مدى قدرته وموهبته ، فألف الخمول والتعطل .. وسرعان مادب الشقاق بينه وبين أمى ، فكان لا يمر يوم دون أن تنشب فيه بينهما معركة يستخدمان فيها الاوانى الزجاجية وغيرها مما يقع تحت أيديهما !

« ولما كانت أمى هى التى تعمل ، لكى تقيم أود العائلة ، فقد صارت شديدة القسوة والتقتير .. وكنت أرقب

مظاهر الشجار الذى ينشب بينهما وقلبى يتمزق أسى على زوج أمى - (وسألقبه بأبى طوال القصة) - حتى أننى حين طلب منى أن أعطيه بعض نقود أمى ، سلمتهـا اليه دون تردد ، ثم ادعيت أنها سقطت من يدى فى الجليد !..

وأخير احل اليوم الفاصل الذى حضر فيه أبى حفلة أقامها أحد عازفى الكمان الفرنسيين .. وفى تلك الليلة عاد أبى محطما تماما .. لقد قارن - فى نفسه - بين موهبة ذلك الفرنسى وموهبته التى أصدأتها قلة المران .

وفى تلك الليلة ماتت أمى ، فجمع أبى حاجياته فى ارتباك، ودعانى للرحيل معه .. وفى منتصف الطريق خدعنى ، ولاذ بالفرار .. فانطلقت اركض خلفه ، وانا أبكى وأصيح مناشدة اياه أن ينتظرنى .. لكنه ابتعد مسرعا وتركنى مغشيا على !

ولما أفقت وجدت نفسى فى منزل أحد الامراء ، وكان قد سمع كثيرا عن أبى ، فلما أغمى على اصطحبنى الى داره . ولم يلبث أن علم أن بعضهم قد عثر على جثة أبى ملقاة فى أحد الازقة ، فلاطفنى وأحاطنى بحدبه ورعايته ، ونشأنى فى منزله مع ابنته « كاتيا » التى كانت فى سنى .

وبمرور الايام شغفت بكاتيا شغفا شديدا ، بلغ حد الافتتان.. ولم تلبث علاقتنا أن تطورت الى ملازمة مستمرة ، فريدة فى بابها ، تتخللها نوبات من الصدود والوصال ، والاعراض والاقبال .. »

والآن تستطيع أن تواصل القراءة :

- ٦ -

كان أعراض كاتيا عنى فى أول الأمر قد أرهقنى ، الا أن كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ، حتى صرت لا أعرف ما اشعر به . وهكذا أخذت مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ، واصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألمها ، وتحل محلها آلام حياتى الجديدة .

كان يتفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، واقترب من سرير الاميرة الصغيرة على رؤوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب . وكنت فى بعض الاحيان أجلس على حافة سريرها ، وانحنى على وجهها أتنسم أنفاسها الدافئة . وفى رفق ، وأنا ارتعد خوفا ، اقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ، وقدميها ـ حين تبرز قدماهـا من تحت الغطاء ـ ولاحظت شيئا فشيئا (وكان نظرى لا يفارقها منذ شهر !) ان كاتيـا تزداد وجوما ، يوما بعد يوم ، وان مزاجها يزداد تقلبا ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله لا يسمع لهـا صوت ، وهاهى فى الغد تحدث صخبا اقوى من كل ماأحدثت قبل ذلك من صخب ! .. وهى الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب فى كل لحظة ، وسلوكها نحوى لايخلو

من شراسة وقسوة . وفجـأة ، اصبحت ترفض أن تتنـاول الطعام معى ، وان تجلس الى جانبى ، كانماهى تشمئز منى!
.. ثم صار يتفق لها أن تمضى الى غرفة أمها تقضى معها النهار كله ، ربما لانها تشعر اننى أتحطم حزنا فى غيابهـا . وفجأة ، أصبحت تحـدق فى سـاعات طويلة ، فيصرعنى الاضطراب صرعا ، واحمر واصفر ، ثم لا أدرى ماذا أصنع بنفسى ، ولا اجرؤ على أن ادع الغرفة ..

وشكت كاتيا ، مرتين ، من الحمى – وهى التى لم تمرض قبل ذلك ابدا ! – وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن فى الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم فى الطابق الاسفل مع امها . وكادت امها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابهـا الحمى . وينبغى أن أذكر أن الأم كانت حانقة على ، فهى تعزو الى جميع التغيرات التى لاحظتها فى سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجى الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها . ولئن لم تفصل احدانا عن الاخرى منـذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد . كان زوجهـا يسايرها عادة فى كل امر ، الا انه فى بعض الاحيان كان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رايه .. وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم .

وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقـع

الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا فى لوعة مبرحة . وأخذت أحطم رأسى بحثـــا عن سبب الكره الذى تحمله كاتيا لى !..

كان الحزن يمزقنى تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها فى نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستيـــاء والاستنكار . وخالجنى فجـــأة نوع من العزة ، حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنـــــا ، رأيتنى أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشـــد الدهشة . طبيعى ان هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليزول ، بحيث كان قلبى سرعان ما يخفق خفقانا شـــديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا ووجلا منى فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ظهرت كاتيا فى الطابق العـــلوى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا . انها تسرع الى التعلق برقبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضـحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا . ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلعب . لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح .

.. غير أنها هدأت فى المساء ، واذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقى ظله على وجهها الجميل . وحين صـعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهـدها أن

تظهر مرحة . وما أن مضت أمهـــا ؛ حتى انفجرت باكية . وتاثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذ لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت . ان أزمة لم تكن فى الحسبان تتهيـأ فى نفسها . واســـــتدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتهـــا تفصيلا . وامرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

.. لكنى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء. ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها . . فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحنا ، رأيتها تنظر الى طويلا بعينيها الرائعتين . والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلا منا يشعر بانه مخطىء فى حق الآخر . واخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك . ودقت الساعة الثالثة ، والبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب منى فجأة وتقول :

ـــ لم يربط حذاؤك جيدا . دعينى أربطه . .

فاحمر وجهى احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتنى اخيرا ، واردت أن انحنى لأتولى ربط حذائى بنفسى ، فقالت كاتيـا وهى تضحك :

ـــ دعينى أربطه .

ثم انحنت ، وامسكت قدمى رغما عنى ، فوضعتهما على

ركبتها وأخذت تربط الحذاء .. فاجتاحنى خوف عذب ، جعلنى ألهث ، ولا أستطيع لانفعالى حبسا .. فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ، اخذت تنظر الى من الرأس الى القدمين .

.. ثم قالت وهى تلمسنى بأطراف أصابعها :

ـ والعنق غير مغطى . دعينى أصلح ربط الوشاح ..

ولم أحتج ، وفكت كاتيا وشاحى ، ثم لفت به عنقى على طريقتها ، وأعادت ربطه .. ولم تلبث أن استطردت :

ـ والا فقد تصابين بزكام .

قالت ذلك وهى تبتسم ، وتنظر الى بعينين سوداوين مغرورقتين .

أما أنا فكنت فى حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لى ، ولا أفهم شيئا مما يجيش فى نفس كاتيا .
وكانت نزهتنا قصيرة لحسن الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسى عن الارتماء على عنقها وتقبيلها فى عرض الشارع !.. واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس قبلة على كتفها . ولاحظت هى ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا . ولما اتى المساء البسوها أجمل حلة ، وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشترك فى استقبال الزائرين ..

..غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال .

ذلك أن نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شديدا ، واستدعت الطبيب . وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هذه النوبة ، طبعا ، الى اضطرابات السن ؛ الا انني كنت أعلم أن حالة كاتيا ترجع الى سبب آخر . وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتها ، متوردة الخدين ، مرحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات .

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجوز . ووافقت الاميرة العجوز أن تأتى اليها كاتيا ، على خلاف عادتها – فقد كانت العجوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! – وبدا الانسجام بين العجوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقائهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها ، عن تعكيرها صفاء الآنسة عمتها . فترقرقت الدموع فى عينى الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينة وقورة . ومضت كاتيا الى أبعد من هذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصلى وان تصوم وان تضرع الى الله . فارتاحت الاميرة النقية لهذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من

الزهو . لقد استطاعت ان تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفسهـــا ترضخ لجميع نزواتها وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الخبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطـــاقة على ثوب السيدة العجـــوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميع كتبها لتضع فى مكانها روايات فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشترى متفجرات ترميها على أرض غرفتها ، وأن تدس فى جيبها مجموعة من ورق اللعب .. اعترفت بأنهـــا كانت تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة كل منها أنكى من أخيه وافدح . فما ان سمعت الآنسة العجوز هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصـــفرت واحمرت ســـخطا وغضبا ، ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة . ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنـــة أخيها على الفـــور . وكانت قصـــة . ظلت الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، أن تصفح عن كاتيا ، وأن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبـار الى أن الطفلة مريضة . الا أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع شيئا ، وصرحت أنها ستغادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت الاميرة عهدا على نفسهـــا أن تنزل

بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى ابلت من مرضها .
وفى انتظار ذلك أنبت كاتيا تأنيبا شديدا . واقتيــدت الى
تحت ، الى جناح امها . غير أن المذنبة الصغيرة استطاعت ان
تفر بعد العشاء . لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورايتها
تشق الباب ، وتدعو « فالستاف » . ففهمت على الفور انها
تدبر انتقاما فظيعا . واليكم التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » .
وكان فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب احدا .
انه حيوان مغرور ، صلف ، الى أبعد حدود الغرور والصلف.
كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه كان يقتضى الجميع احتراما
يراه من حقه . والواقع ان كل من فى البيت كان يوفيه حقه
هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة . **ولكن الوضع اختلف كل
الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز . لقد أهين فالستاف
عندئذ أفظــع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجنـــاح
الاعلى !**

وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظـــل
أسبوعا كاملا يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجنــاح
الاعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب اقصائه ، حتى اذا جاء
يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها
وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق

الانفس . واصبحوا لا يمنعونه منعا باتا من الصعود الى الجناح الاعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن . لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد . ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحانق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات ، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعبا ، الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل . أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلخ جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر . وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها .

ذلك أن فالستاف كان احب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها ، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب . لقد أنقذ الامير

البيت ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل . وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميرة على جلد فاخر من جلود الدببة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضة سريعة قاسية ، وحين علمت ان اثيرها هذا يدعى « فريسكا » استاءت استياء شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك . الا ان أسماء مثل اسم « هكتور » أو «سربير» كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجاد اسم أليق . واقترح الامير أخيرا ، لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية ، أن يسميه « فالستاف » . وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له . وكان سلوك فالستاف سلوكا لا غبار عليه . كان صامتا وقورا كانجليزى حقيقى ، لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا ان يخلو له مكانه على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم . وكانت ذكريات كانت توافيه فى بعض الاحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : **كان فى تلك اللحظات يفكر فى الثأر من عدوته اللدود التى جرؤت أن تفتات على حقوقه ، ولم يستطع ان ينتقم منها حتى الآن .. فكان اذا الفى الباب مغلقا ، قبع فى ركن قريب ينتظر ــ مخاتلا ــ مجىء أحد يدع الباب من ذهوله مواربا . وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة ايام طوالا !**

هذا الكلب من الموت . ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى ساحة المنزل . ولم يعترض الامير على ذلك ..

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط « ساشا » ـ أخو كاتيا ـ فى نهر (نيفا) على حين غرة . فأخذت الاميرة تصرخ ، ورمت بنفسها فى النهر . ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير من العناء . أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، فقد ظل عائما على سطح الماء بفضل ثيابه الطافية . وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين أن يمضوا به الى الطفل . ولكن كان لابد من معجزة للعودة بالطفل حيا .. وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتمى فى الماء، ويمضى قدما نحو الامير الصغير الذى يوشك ان يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو به الى الشاطىء ظافرا . وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن فالستاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا») كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبات الاميرة وعلى قبلاتها بعضة فى كتفها عميقة جدا . وقد ظلت الاميرة ، تحس هذا الجرح خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف الشكر والامتنان . وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالستاف بالتجول فى أجنحة

ــ فالستاف ، فالستاف .

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ، فى رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم .

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فتهيأ لاجتياز العتبة . غير أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض فى أول الامر أن يصدق أذنيه ، انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائمتيه الجبارتين على حافتها ، وجعل يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل جمال عمارة قريبة .

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء . تصوروا اذن أية دهشة كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ، ودعى الى الدخول ، بل ضرع اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرح ، وشمر شفتيه ، ثم مرق كالسهم بوثبة رهيبة ظافرة .

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيا اعترض فالستاف فى طريقه ، فطار الكرسى حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار كما يدور الخذروف (النحلة) . كان

فالستاف يمرق مروق قنبلة خرجت من مدفع . وصرخت مدام ليوتار مذعورة ، الا ان فالستاف كان قد بلغ الباب الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه . ولم يستطع أن يفتحه ، فجعل يعول عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما اجابته العجوز بعويل كعويله . ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكى الكلب كمامة ، وأن يكبلوا قوائمه الاربع ، وان يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل على حال من الهوان يرثى لها .

واستدعيت الاميرة .

ولم تكن المسالة فى هذه المرة مسالة تعلل أو اعتذار . ولكن من ذا الذى يجب ان يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة القتها على ابنتها . لا مجال للشك . **ورأيت كاتيا ممتقعة ترتعد خوفا . فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها .** كان يمكن أن تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن تعترف بالحقيقة كلها .

سالتها أمها فى صرامة :

ـ هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وانا أتقدم الى أمام ، وأقول بصوت جازم :

ــ **أنا التى تركت ((فالستاف)) يمر !**

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتى بتأثير النظرة المتوعدة التى ألقتها على الاميرة :

ــ ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ..

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

ــ مدام ليوتار ، انزلى بهـا العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة .

نظرت الى كاتيا . كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ، واحنت رأسها الشاحب .

كانت العقوبة الوحيدة التى تنزل بأولاد الامير هى أن يحبسوا فى غرفة فارغة . ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ، فى ذاته . ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ، زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو من شدة . اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو يحبس أخوها خلال ساعتين . أما أنا فقد حددت عقوبتى بأربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة . كنت أفكر فى الاميرة الصغيرة ، واعلم أن النصر لى ، ولكننى بدلا من أن أبقى أربع ساعات ، بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح . واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت فجاة لدى وصولها من موسكو ، وانها تريد أن تراها . فتركت البيت دون ان تفطن الى وجودى فى السجن . وظنت الوصيفة التى كانت تهتم بأمرنا انه قد أطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى اسفل ، وظلت الى جانب امها حتى الساعة الحادية عشر مساء . ودهشت كاتيا حين عادت فوجدت سريرى فارغا . وجردتها الوصيفة من ثيابها وأضجعتها فى سريرها ، ولم تشأ الاميرة الصغيرة أن تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن . الا أن ناستيا كانت قد نسيتنى ، ولا سيما أننى أتولى خلع ملابسى دائما بنفسى . وهكذا قضى علىّ أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت انهم يحاولون فتحه عنوة . كنت نائمة على أرض الغرفة ، فصرخت جزعة ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت

كاتيا ، وكان يعلو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم اصواتا أخرى . وفتح الباب أخيرا ، ورايت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الى أن اغفر لها أنها نسيتنى ، فالقيت ذراعى على عنقها باكية ، وكنت ارتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى . ونظرت ابحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها . وحين عدت الى الفرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم . لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تنتظرنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريرى جن جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لاطلاق سراحى .

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود . أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون اهتياجا ، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

– ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هذه الصغيرة البائسة ؟ هذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى . طفلة ضعيفة مريضة ،

خيالية الى هذا الحد ، جزعة الى هذا الحد ، تحبسينها فى غرفة مظلمة طوال الليل كله ! تريدين اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه قسوة فظيعة ، اقول لك هذا بلا مواربة، وكيف تسمحون لأنفسكم بانزال مثل هذه العقوبة ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة ــ وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع ــ ان تشرح القضية من اولها الى آخرها ، فاعترفت أنها نسيتنى بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هذه العقوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القبيل .

ــ جان جاك روسو ؟.. جان جاك روسو لم يقل شيئا من هذا . وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى . جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له . جان جاك روسو أهمل أبناءه أنفسهم ، ياسيدتى . جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى .

ــ جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم .

كانت مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، تكره أن تغضب

أكثر ما تكره . ولكن حين يمس أحد الاثيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين ينتقد أحد « فولتير » ، أو حين يعد « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح !

وتفجرت الدموع من عينى مدام ليوتار سخينة سخية ، وأخذت ترتجف من شدة الانفعال .

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :

ـ انك تنسى نفسك ، ياسيدى الامير .

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب منى فقبلنى قبلة تفيض بحنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم انصرف .

ـ مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا . ثم جلسنا الى الدرس .

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة . وقبيل الذهاب الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الى وقد امتلأت نفسها حماسة وارتسمت على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى بعض الشىء :

ـ اذن فأنت قد تحملت العقاب من اجلى ؟ اسمعى . سنلعب بعد العشاء فى القاعة الكبيرة .

ومر شـــخص بجانبنـــا ، فابتعـــدت الاميرة الصـــغيرة مسرعة .

***

وبعد العشاء ، عند الغسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد أمسكت كل منا بيد الاخرى . كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق انها بدت تغص بأنفاسها . وشـــعرت أنا بفرح وسعادة يندر ان أشعر بمثلهما .

فلما وصلنا الى القاعة قلت :

ــ هل تحبين أن تلعبى بالكرة ؟ قفى هنا .

وأوقفتنى فى احدى زوايا الصالة . الا انها بدلا من أن تبتعد، وترمى الى بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطـــوات منى ، ونظرت الى ، فاحمـــر وجهى ، ثم اندفعت نحـــو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين يديها . وتحركت نحـــوها ، فظنت أننى أهم أن أمضى فقالت :

ــ لا تذهبى يا نيتوتشكا . ابقى معى .

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمرت وجنتاهـــا وترقرق الدمع فى عينيها ، فارتمت على عنقى مسرعة . كانت وجنتاها كالنار حرارة ، وكانت شـــفتاها كالخـــوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضـــطربة .. وأخذت تغمرنى بقبل محمومة مجنونة : على الوجه ، على العين ، على

الشفتين ، على الخدين ، على اليدين . كانت تشهق وتنتحب كأنها فى نوبة عصبية . وضممتها الى صدرى ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين فى حنان ، كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد . وكان قلب كاتيا يخفق خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته .

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوى فى الغرفة المجاورة . ان الاميرة ارسلت تستدعى كاتيا . .

ــ آه ، نيتوتشكا . الى اللقاء فى هذا المساء ، فى هذه الليلة . اصعدى . انتظرينى فى الطابق العلوى . .

وقبلتنى قبلة اخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تستجيب لنداء « ناستيا » . صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت ، فارتميت على « الديوان » واغرقت راسى فى وسادة ، واخذت أشهق من شدة الفرح . كاد قلبى يشق صدرى من شدة الخفقان . لا اتذكر الآن كيف استطعت التذرع بالصبر الى الليل . واخيرا دقت الساعة الحادية عشرة ، واضطجعت فى سريرى . . ولم تعد كاتيا الا فى منتصف الليل . فتبسمت لى من بعيد ، دون أن تنبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تتعمد البطء فى تجريدها من ثيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

ــ عجلى ، ياناستيا ، عجلى .

ــ ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا . لاشك

انك صعدت السلم عدوا .

ـ هوه ! ناســتيا . انك تزعجيننى . عجلى . قلت لك عجلى .

وضربت برجلها الارض مغتاظة .

قالت ناستيا وهى تقبــــل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتها من حذائها :

ـ هذا القلب الذى يخفق !

وانتهى أخيرا كل شىء : اضطجعت كاتيــا على سريرها ، وخرجت ناستيا من الغرفة . وفى طرفة عين ، رايت كاتيــا تخرج من سريرها ، وتثب الى ، فما أن لمستنى حتى انطلقت من صدرى صرخة .

ـ هيا . تعالى . تعالى الى سريرى . أسرعى .

أمرتنى بذلك وهى تنهضنى . وما هى الا لحظة حتى كنا فى سريرها متعانقتين أضمها وتضمنى ضـــما قويا . كانت قبلات كاتيا تخرج من أعماق روحها .

قالت وقد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

ـ هل تعلمين اننى رايتك حين قبلتينى فى الليل ؟

وطفقت أشهق .

.. بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها :

ـ نيتوتشكا ، عزيزتى ، اننى أحبك منذ زمان طويل ، هل

تعلمين ؟ هل تريدين أن أقول لك منذ اى يوم ؟

ـ منذ اى يوم ؟

ـ منذ اليوم الذى امرنى فيه ابى ان أعتذر اليك .. منذ ذلك اليوم الذى أردت فيه ان تدافعى عن أبيك ، يا نيتوتشكا ..

وأردفت تقول وهى تغمرنى بالقبل ، وتضحك فى آن واحد :

ـ يتيمتى العزيزة ..

ـ كاتيا !

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ظللنا طوال هذه المدة .. طوال هذه المدة ..

ولم استطع أن اتم كلامى . وتعانقنا . وخيم الصمت ثلاث دقائق طوالا .

ـ ما كان رأيك فى يا نيتوتشكا ؟

ـ آه ، يا كاتيا . كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فيك ، ليل نهار .

ـ وكنت فى الليل تتكلمين عنى . سمعتك .

ـ مستحيل .

ـ بلى ! وما أكثر ما بكيت .

ـ اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

ـ كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا . هـــذه الحماقة تتملكنى أحيانا . ولا استطيع لها دفعا . كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الامر .

ـ لماذا كنت حاقدة على ؟

ـ لا لسبب . لاننى شريرة . ثم لأنك احسن منى . ثم لأن أبى يحبـك كثيرا . ان أبى انسان طيب جدا ، الا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

ـ أوه . بلى . بلى .

قلت ذلك ، وقـــد ترقرق الدمـع فى عينى ، على ذكر الامير .

واضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

ـ انه انسان طيب جـــدا .. ثم اننى حين طلبت اليك الصفح ، كنت على وشك أن ابكى .. وبسبب هذا ايضـــا حقدت عليك .

ـ نعم . لاحظت ذلك . لاحظت انك تودين لو تبكى .

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

ـ أسكتى . أنت نفسك تميلين للبكاء . اسمعى . آه . لقد أحببتك حبا قويا . ولكن ، فجـــأة ، رأيتنى اكرهك ، أكرهك كرها ، هل تسمعين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب . كنت حاقدة عليك ، لا أدرى لماذا ! ولاحظت انك لا تستطيعين أن تعيشى بدونى . فقلت فى نفسى : لأعذبها قليلا ..

ـ آه . كاتيا .

واردفت كاتيا تقول ، وهى تقبل يدى :

ـ حبيبتى .. ثم قررت أن لا اكلمك أبدا . هل تذكرين يوم داعبت فالستاف ؟

ـ آه . لشد ما خوفتينى !

ـ ولشد ما خفت انا أيضا . هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تنظرين الى . حين رأيت انك تنظرين الى.. قلت فى نفسى : ليكن ما يكون .. وجازفت .. ألم تخافى خوفا شديدا ؟

ـ خوفا فظيعا !

ـ لاحظت. لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف. رباه !.. ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد .. هذا الغول !

ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضـــحكة عصبية . وفجاة ، رفعت راسها المحموم ، واخذت تحدق فى . كانت

دموع كاللؤلؤ ترتجف على حافة أهدابها الطويلة .

– ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة . وشعرك الزاهى قبيح . وانت غبية .. وانت بكاءة . نعم يا يتيمتى الصغيرة العزيزة !

وعادت كاتيا تغرقنى بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقى . انها مضطربة أعمق الاضطراب .

– نعم أحببتك كثيرا . ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا . لن أصارحها . وأصررت على عنادى . لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت خجلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

– انى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى . ان قلبى يوشك ان يتحطم !

– نيتوتشكا . اسمعى . نعم اسمعى . ولكن قولى : من أسماك نيتوتشكا ؟

– أمى .

– ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟

فأجبت فى حماسة :

– نعم . كل شىء ، كل شىء .

– وأين المنديلان اللذان سرقتيهما منى . وأين شريط

شمرى ؟ لماذا اخذت شريطى ؟ الا تخجلين ؟ اننى اعرف كل شىء ، هل ترين ؟

واخذت اضـــحك واحمر وجهى حتى طفرت من عينى الدموع .

واستانفت كاتيا كلامها :

ـ قلت فى نفسى : كلا . فلتنتظر . يجب ان اعذبها اولا . وكنت اقول لنفسى فى بعض الاحيان : كلا ، اننى لا احبها ، لا احبها ابدا ولا اطيق رؤيتها . وبقيت انت لطيفة وديعـة مثل حمل . آه ! لشد ما كنت أخشى أن تعدينى بليدة ! ذلك أنك ذكية يا نيتوتشكا ! انت ذكية جدا ، أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتى تجرح :

ـ لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا فى لهجة رصينة جازمة :

ـ بل انت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفى ذات صباح ، استيقظت من نومى وانا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم اطق ذلك ، وكنت قد حلمت بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضى الى امى ارجوها ان تقبلنى فى غرفتها . كنت اريد أن لا احبك، نعم ، كنت أريد أن لا احبك . وفى الليلة التالية ، رايتنى اقول لنفسى وقد اضطجعت فى سريرى : آه .. ليتها تاتى كما اتت فى تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم فى تلك الليلة .

اليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان ان يكـــون خبيثا ، يا نيتوتشكا !

ــ ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبى ؟

ــ لغير ما سبب . هى فكرة راودتنى . ولكن ماذا أقول ؟ لقد احببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائمـــا . وكنت أقول لنفسى : سأخنقها بالقبل ، وسأظل أعضها وأقرصـــها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها ذلك ، هذه الحمقـــاء الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

ــ هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

ــ أذكر .

ــ كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ اليك ، وانا اقول فى نفسى : ما ألطفها !.. سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسهـــا ! وكنت أنا فرحة . هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك . ولكنى لم أقبلك . وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ! نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ! طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اننى لم أستطع أن أنظر اليك ! آه . وما كان اشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما اسعدنى ان أشـــعر انك فى السجن من اجلى . هل فزعت ؟

ــ فزعا فظيعا .

ـ لم يسعدنى انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى . هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما احبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا . والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا . ومع ذلك فقد بكيت .

ـ اما انا فما بكيت . كنت سعيدة جدا !

ـ ما بكيت ؟ آه منك أيتها المنسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عنيفة .

ـ كاتيا ، كاتيا . انك لطيفة جدا .

ـ اليس كذلك ؟ نعم . والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين . تستطيعين أن تعذبينى ، أن تقرصينى . أرجوك . اقرصينى بقوة .

ـ عفريتة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ حمقاء صغيرة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ قبلينى .

وتبادلنا القبل ، وبكينا ، واخذنا نضحك .. وتورمت شفتانا من قوة القبل .

ـ نيتوتشكا ! ستنامين دائما معى . ثم ، هل تحبين

القبـــل ؟ اذن اقبلك وتقبليننى . ثم اننى لا اريد أن تكونى حزينة هكذا ! لم انت حزينة ؟ ستقولين لى كل شىء ، اليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأقول لك كل شىء . ولكننى لست حزينة الآن ، اننى فرحة .

ـ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلى ! آه . لا أحب أن يأتى الغد . هل أنت تعسة يا نيتوتشكا ؟

ـ كلا .

ـ اذن فلنتحدث . هيا نتحدث .

وتحدثنا ساعتين ، لا أدرى فيم تحدثنا ! شرحت لى كاتيا خططها للمستقبل ، وشرحت لى الوضع الحاضر . علمت أنها تحب اباها اكثر من اى انسان آخر ، اكثر مما تحبنى تقريبا . واتفقنا كلتانا على ان مدام ليوتار امرأة طيبة ممتــازة ، غير قاسية البتة . ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ، وما سنفعله بعــد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقــل تقدير !.. وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمــر واطيع ، ويوما آمر وتطيع ، ويوما نأمر كلتانا وتتعمــد احدانا ان لا تطيع فنتظاهر بالمخاصمة ثم نسارع الى المصـــالحة . الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها أمامنا . وأخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما ثرثرنا ، واطبقت أجفاننا . ونامت

كاتيا قبلى ، مع انها هزئت بى لأننى كنت أتثـــاءب . وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لاننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وســارعت الى سريرى .

وطوال النهار كنا من شـــدة الفرح كمن طاش عقـــله . وحرصنا على ان نختبىء دائما فى اقصى مكان ممكن خشية ان يرانا احد . وبدات اخيرا اروى لكاتيا قصتى ، فكانت تصغى الى مضطربة الى حد البكاء .

ـ لماذا لم تقصى على كل هذا من قبل ، اينتها الخبيثة ؟ لو قد قصصته على لكنت احببتك ، لكنت احببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

ـ جدا . وكنت أخاف ، اكاد اموت من الخوف !

ـ آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشارع صـبيا يضرب صبيا آخر . غدا سآخذ ســـوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلدته، جلدته جلدا . سترين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ..

كنا نرتجف اذا دخل علينا احد ، كنا نرتعد خوفا من ان يباغتونا متعانقتين . وتعانقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على اقل تقدير . هكذا انقضى اليوم الاول ، فاليوم التالى .

.. الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات ابنتها وكل سكنة من سكناتها ؛ فراقبتنا خلال ثلاثة أيام ، وجمعت فى هذه المدة كثيرا مما يمكن أن يقال . **وأخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها كل ما لاحظته :** ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من اللحظات ، اننا نتعانق فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ؛ اننا لا ننقطع عن الحديث لحظة ، وهذا أمر لم يقع قط من قبل .. وانها لا تعرف كيف تعلل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الاميرة الصغيرة تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

ــ اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه اليتيمة العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه على عن حياتها أمر فظيع ؛ فظيع جدا . ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

ــ حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

ـ عجيب . لقد ظلتا غريبتين احداهما عن الاخرى مدة طويلة ، ويجب أن اعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليتيمة ما زالت صغيرة ، غير أنها لا توحى الى بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا مشبوها . لا افهم تعلق الامير بها . لقد حاولت ألف مرة ان ارسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك .

وودت مدام ليوتار لو تتشفع لى ، **لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزما لا يتزعزع ..** فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وابلغتها انها لن ترانى قبل يوم الاحد القادم، اى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، وصعقت للنبأ ، واعتقدت أن كاتيا لن تحتمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل . وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى ان لا اقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا ان يرد الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق انفاسى ..

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبتها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

((أحبك كثيرا . اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو ان أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك . أعدك وعدا قاطعا . يجب اذن أن لا تبكى . اكتبى الى انك تحبيننى . ظللت طوال الليل احلم بك وأقبلك . لقد تألمت كثيرا ، يانيتوتشكا . أرسل اليك بعض الحلوى . الى اللقاء .))

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها . وظللت طوال النهار اغرق رسالتها بالدموع . والحت مدام ليوتار فى مواساتى . وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، مافى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيا .. وسألت ناستيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة شحوبا رهيبا .

وجاءتنى ناستيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

ـ اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن .

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسرعت أعدو على السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته . لم تكن كاتيا هنالك . ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى فى عنف وحرارة . وكانت ضحكات ، وكانت دموع .. ثم اذا بكاتيا تنتزع نفسها

منى فجأة ، وتتجه الى أبيها وتتسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها فتتدحرج على « الديوان » هى وأبوها . كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح .

ـ ابت . ابت . كم انت طيب ! كم أنت نبيل !

ـ أيتها الشيطانتان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ماهذه الصداقة ؟ ماهذا الحب ؟

ـ اسكت يا ابت . انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة أخرى .

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نحلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، واصبحت شاحبة . وحزنت لهذا حتى بكيت .

وأخيرا جاءت ناستيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون كاتيا .. فامتقع لونها امتقاعا شديدا .

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان . سنلتقى معا فى كل يوم . فلتودع كل منكما الاخرى الآن . وليبارككما الله .

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا . الا أن الامير قال ماقال دون أن يحسب حساب المفاجئات . ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو يقول ان « ساشا » مرض فجاة ، وان حياته فى خطر . فقررت الاميرة أن تسافر الاسرة الى

موسكو فى الفداة . وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ، حتى اننى لم أعلم بشىء الا فى لحظة الوداع . وقد أصر الامير على ان انزل مودعة ، ووافقت الاميرة على مضض . أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ السفر صعقا . وقد عدوت الى اسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا . كانت العربة تنتظر أمام الباب . ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها صرخة ، وسقطت بلا وعى . اغرقتها بالقبل . الا أن الاميرة أمرت بأن ترد كاتيا اليها . وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها . ثم قالت وهى تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يانيتوتشكا . لا تنظرى الى هكذا . لست مريضة . بعد شهر أعود . ولا فراق بعد ذلك أبدا .

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى ، هيا بنا .

الا ان كاتيا التفتت الى مرة اخرى لتضمني بذراعيها ، وهمست وهي تقبلني :

ـ أنت حياتي كلها ، الى اللقاء .

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، لمدة طويلة جدا . لم القها الا بعد ثماني سنين !

؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

لقد اسهبت ـ عن عمد ـ فى قص تلك الفترة من طفولتى، اعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى . ذلك أن تاريخنا لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ان روايتها هى روايتى . لكأن القدر قد شاء أن تجد احدانا الاخرى . لذلك لم أستطع أن امتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى . وسأسرع فى سرد مابقى مما اريد سرده .

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت .. (لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمرى ، ان صح التعبير ، كما سيجىء البيان ..)

ولكن لا بد من قول بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو .

بقينا انا ومدام ليوتار وحدنا .

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا أن عودة الاسرة قد أرجئت الى حين . ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لاسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير ، الا انها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » .

وانا لم اتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا ـ وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة ـ وهى ابنة

الاميرة من زواج أول . ولم يكن محتد الاميرة بالمحتد الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الاول سوى تاجر خمور . وحين تزوجت مرة اخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول . لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لان المهر الذى يخصها كان ضئيلا . واخيرا استطاعت الاميرة منذ اربع سنين أن تزوجها من رجل غنى ذى مكانة ، فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير حلقة أمها ، واصبحت تلقى اناسا يختلفون كل الاختلاف عمن تلقاهم أمها . وكانت الاميرة تزورها مرتين فى السنة ، كما كان الامير ، زوج أمها ، يأتيها بكاتيا مرة فى كل أسبوع . **ولكن الاميرة أصبحت فى المدة الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى اختها ، فكان الامير يأخذها اليها خفية . وكانت كاتيا تحب اختها حبا عظيما ، رغم ان طبع كل من الاختين كان نقيض طبع الاخرى على وجه مستقيم !**

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة فى الثانية والعشرين من عمرها ، ناعمة رقيقة وديدة ، يظلل وجهها نوع من الالم الخبىء . على أن الوقار والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة اكثر مما توافق الطفلة ثياب الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها بحب عميق .

ومن فرط شحوبها قبل يوم رايتها لاول مرة أن بها استعدادا للاصابة بمرض السل .

وهى لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء . وأذكر اننى حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت منى وقبلتنى فى كثير من العطف والحنان . وكان فى صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم ، فما أن رآنى حتى أخذ يبكى . انه العازف على الكمان «ب» . **وطوقتنى الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتنى هل أحب أن أعيش فى بيتها وأن أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتى ، فاذا بى ارتمى على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعانى مرة أخرى بكلمة ((يتيمة))** .. وعندئذ ارتنى الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم بضعة اسطر ، موجهة الى ، قراتها وانا أجهش ببكاء عميق . كان الامير يباركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الى أن احب ابنته الكبرى . وقد كتبت كاتيا بضع كلمات ايضا فى حاشية الرسالة ، تذكر فيها انها الآن لا تفارق أمها .

وهكذا وجدتنى ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل آخر ، بين وجوه جديدة !.. وانتزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى . لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد وفى نفسى غم عميق ..

والآن تبدأ قصة جديدة .

- ٧ -

سارت حياتى الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الاديرة !.. فقضيت بين أحضان هذه الاسرة الجديدة ثمانى سنين لا أذكر انه اقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب او أصدقاء أومعارف ، اللهم الا مرة أو مرتين !.. وفيما عدا شخصين او ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيماعدا الموسيقى «ب» صديق الاسرة ، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يغشى المنزل أحد . وكان هذا الذى أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة خطيرة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وانه يحتل مكانة مرموقة للغاية . كان الحظ والنجاح يبتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ،

بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يضنون بهذا الحب على امرأته . لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ، كان طبعها الهادىء قد فطر على حب الانزواء .

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها. أما أنا فقد ارتميت فى أحضان هذه الام الرءوم فى ظمأ شديد، عاجزة عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا .. ولم يفتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك . كانت لى أما وأختا وصديقة ، او كانت بمثابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب . **وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كنفها . ثم اننى أدركت منذ البداية ، بنوع من الغريزة أو الحس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الرائقة الصافية التى تضىء وجهها فى غالب الاحيان.** وكنت فى كل يوم ازداد فهما للقدر الحزين الذى تعيشه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطء ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ..

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة . وكان وجهها يضىء

بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائى لاول مرة لم يحسب أن فى وسع اى نوع من انواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة !.. ثم انك اذا رايتها ادركت انها لا يمكن ان تكره أحدا مهما يكن شانه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسها على مشاعر الكره . ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ..

وعلى انها رغم كونها قوية العواطف شديدة التأثر ، كان يبدو أنها تخشى مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم !.. وكنت فى بعض الاحيان ارى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة تعذب ضميرها ، وتحز فى قلبها .. كأن شرا مستطيرا يهوم فوق سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها !.. كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت حياتها اهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها ، وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة . وكان ذلك يراودها فى نوبات قاسية ، بحيث لا اذكر ان شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه السنين الثمانى دون ان ينتابها شىء من ذلك !..

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جهتها تكن له حبا يقرب من العبادة ! .. ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائى ، من أول نظرة ان بين الزوجين امورا

خفية . كان ثمة سرا يحوم فوق حياة هذه المرأة .. او ذلك على الاقل ماقدرته فورا !

***

وقد أوحى الى زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما . كان رجلا نحيلا طويلا ، خيل الى كأنه يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين . وكان فاتر المزاج ، قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته . كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الى البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير من الضيق والحرج ، حين يتفق ان نحتسى الشاى جميعا فى صالة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت اضطرب واغتنم ، واختلس النظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاشعر انها ترتجف . كانت ازاءه تراقب كل حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته اكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هى تدرك فى كلامه غمزة ما أو تلميحا ! ..

وادركت ان حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا انها لا تستطيع ان تعيش بدونه دقيقة واحدة ،

ولشد ما ادهشنى انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! .. كانت تحاول أن تجاريه وترضيه فى كل أمر ، كأنما هى ترى نفسها عاجزة عن تحقيق مايحب . كانت كأنها تستجدى رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف فى وجهه ، او كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفتيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة .. فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الاولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ..

وكانت تحيط زوجها بجميع انواع الرعاية والعناية التي يحاط بها مريض من المرضى . ومعذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يصافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تتبدل تبدلا كبيرا ، فتصبح حركاتها واقوالها اكثر مرحا واكثر انطلاقا .. غير ان ذلك لم يكن يحدث فورا ؛ فانها فى كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتاخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التي وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت الي وتسالني : هل هذا ماقاله بطرس الكسندروفتش ؟ .. كان واضحا انها تبحث في اقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لابد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تتفوق على الشفقة

من انه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير ماداع الى القلق ، فاذا هى بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هى تقبلنى وتضحك معى، أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف ارتجالا مايقرب من ساعتين ..

وفى بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكى على حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، اسرعت تقنعنى همسا ، مخافة أن يسمعها أحد ، بان دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان على ان لا اقلق .

وفى أحيان اخرى ، اثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه اشد القلق ، فترسل احدى الخادمات تسأل عما يفعل ؛ كانت فى حاجة لان تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهل جرا .. كانت كأنما لا تجرؤ أن تفاتحه فى موضوع أعماله ومشاغله ، وكان اذا أسدى اليها نصيحة أوطلب اليها شيئا، تصغى اليه فى خضوع وذل ، كانها خادم أو عبد . وما اشد فرحها حين يجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، او شىء صنعته بيديها ، أو ما الى ذلك . كان ذلك يرفع راسها ويغرقها فى بحر من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له ـ وذلك أمر نادر ـ أن يداعب أحد طفليها الصغيرين ؛ كان وجهها

يتبدل عندئذ تبدلا كبيرا ، فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز فى تلك اللحظات حدود المرح التى تسمح لنفسها بهـا أمام زوجها ، فاذا هى مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعا) أن يسمع قطعة موسيقية جديدة وصلتها مؤخرا ، او تبدى رأيها فى كتـاب جديد قرأته ، أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب ان تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف أعجبها اعجابا شديدا . وكـان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل يمضى الى أبعد من ذلك فيبتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجنى حتى أعماق نفسى — لا أدرى لماذا — كما كانت تزعجنى بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجنى فقدان المساواة فى العلاقات بين هذين الزوجين . ولكننى كنت أسكت ، واضبط نفسى ، واكتفى بأن الاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصـغار وعقل الكبار فى آن معا ! .. **وكنت ألاحظ فى أحيان أخـرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شىء مؤلم ، رهيب ، لا يلأم صدعه ولا يرتق فتقه — يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقله ، فاذا هو يتجلد ويتحامل على نفســـه ، ثم تزول الابتسامة السمحة من ثغره فى طرفة عين ، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشـفقة ،**

فارتعد انا – كان هذه الشفقة تنصب على ، وكان شعورا بالعار يغشانى أنا أيضا ! – ويبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى او تنقطع القراءة ، وتمسك المراة المسكينة عن الكلام ، وقد امتقع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والالم الكاوى ، احسبها دهرا ! ..

وكان الزوج – أخيرا – يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق فى نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور فى الغرفة عدة مرات ، فى صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسى زوجته ، ثم يترك الغرفة.. فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ ، فى بكاء سخين ، أو تغرق فى حزن رهيب لا ينتهى . وكان فى بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هى تقبل دعواته فى احترام واجلال ، بل كان الدمع يترقرق فى عينيها اعترافا بالجميل ..

.. ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسيتين أو ثلاثا لا اكثر ، طوال هذه السنين الثمانى !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا فجأة ، حتى لكأنها شخص آخر ..

فاذا بنوع من الكره ، نوع من الفيظ والحنق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنعومة ، طاردا ذلك الذل الابدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة الخاضعة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المرأة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدالانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع ان تكبح المهما فتنفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالمحمومة . ليتكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : ليتكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك انه ياخذ يقبل يديها ، ثم يطفق اخيرا يبكى معها . **الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من تيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه ان يغتفر له ذنبه : كانت تهولها دموع زوجها ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به ..**

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الازمات ، فتظل شهورا برمتها لاتنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتعادا منها فى أى

وقت مضى . وكنت لا استطيع أن أفهم شيئا من هذه الازمات سيما وقد كنت أحمل أثنـــاء ذلك على ترك الغـرفة ، فى غير لطف ولا لياقة ! .. على انه كان يستحيـــل عليهما أن يخفيا عنى كل شىء . كنت ألاحظ وأحزر، وكان قد استقر فى ذهنى شىء من الارتيـاب الغامض منذ البداية : **لا بد أن فى أعماق هذه الامور سرا . هذه الازمات المفاجئـــة التى تعصف بهذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب، لا يمكن أن تنشأ عن مجرد حالة عصبية** .. ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التى يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الخجل الابدى ، وهذا القلق الذليـل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هذا الحب الغريب الصـــامت الذى تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التى تعيشها هذه المراة ، هذا الاحمرار المفـاجىء وهذا الاصفرار المفاجىء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، **كل هذا لابد أن يكون له سبب !**

ولكن لما كانت هذه الازمات بين الزوجين نادرة جـدا ، وكانت حياتنا رتيبة على نسق واحد ، وكنت اعرف جميع تفاصيلها تقريبا ، ولما كنت انمو بسرعة ، وكانت هنـــالك اشياء أخرى تثير انتباهى وتشـــغل اهتمامى رغما عنى ،

فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهـــذه الطباع التى تحيط بى . صحيح اننى كنت فى بعض اللحظات لا استطيع ان امتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظــر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، الا ان تأملاتى لم تكن تخلص الى اية نتيجة . كنت أحب الكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، واحترم الحزن الذى يكتنفها ، واخشى أن ازعجها باستطلاع فى غير محله . على انها كانت تفهمنى .. وكم من مرة شكرت لى تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقى عليها ، ابتسمت من خـــلال دموعها ، واخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت ــ فى احيان أخرى ــ تقول لى ، فجأة ، انها على احسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حدود الســعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميـــع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبهـا هو أن ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى ترودها ، مع انها سعيدة جدا ، جـدا جدا . وكانت تعانقني عندئذ في كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتي لينخلع قلبي شفقة ، ان صح التعبير .

رباه ! لن تمحي قسمات وجهها من ذاكرتي يوما . انهـا

قسمات قويمة يزيدها نحولها وشحوبها جمالا وفتنة . أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد – بحكم منطق الاضداد – من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عينى طفل ، ورقة بسمتها الخجلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الخفر ، ويزيد من روعة وجهها الاعزل المنقاد لكل اندفاعة من اندفاعات قلبها ، من فرح سريع فى بعض الاحيان ، الى كآبة ناعمة فى معظم الاحيان .. ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ماهو نبيل ، والى كل مايستثير الشفقة ويذكي الالم ، بحيث لا يسع المرء الا ان يستسلم لها رغم انفه ، والا أن ينجذب اليها رغم انفه ، ليجني قليلا من هذا الصفاء ، من هذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحي ، من هذا الحب الذي ينبع من اعماق وجودها .

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على ان يظل مدة طويلة فى تأمل متصل حتى تتحرر فيه النفس من اثقالها ، وتصبح اشبه بصفحة ماء هادئ

تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية . **وقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الاحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتمع فى عينيها بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها !..** وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفاجئة ، واندفاعاتها المباغتة تنقلها من الخجل الرقيق الى الانفعال الرفيع والحماسة الجريئة. ولكن ما أكثر ماكانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تعجل كتعجل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست اشك فى أن مصورا من المصورين مستعد لان يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قماشه لحظة من وجد فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ..

***

وقد ادركت فى الايام الاولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة التامة سعيدة بوجودى الى قربها . لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد اصبحت اما الا منذ سنة واحدة فأصبحت انا ابنتها . كانت لا تستطيع

ان تفرق بينى وبين طفلها . ليتكم ترون حماستها الشديدة فى الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليوتار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل . والحق اننا اندفعنا كلتانا الى كل شىء فى آن واحد ، حتى لم تعد تفهم شيئًا ، لاهى ولا أنا . كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حس عملى . وقد ساءها طيشها هذا فى أول الامر ، الا اننا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شىء من جديد .

ذلك أن الكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت تحب أن تنهج فى التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليوتار ، وكانتا تتناقشان فى هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتى الجديدة تعلن فى لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضرورى أن تحشو رأسى بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحى فى الدراسة يجب أن يعتمد على مواهبى الطبيعية ، وعلى البراعة فى ايقاظ ارادتى الحسنة .

ولقد كانت على حق فيما قالت ، مادامت قد نجحت

نجاحا تاما . وقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة، فكنا معا كصديقتين ، حتى لقد كانت من البراعة فى هذا بحيث كان يبدو فى بعض الاحيان اننى أنا التى أعلمها ! .. وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن ابرهن بحرارة على صحة آرائى ، دون أن أدرك ان الكسندرين ميخائيلوفنا تقودنى فى هذا السبيل . وكنت ادرك حيلتها هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا ، فأقدر عندئذ الجهد الذى تحملته ساعات طويلة فى بعض الاحيان ، والتضحية التى بذلتها من أجلى ، فأرتمى على عنقها ، وأقبلها بقوة وعنف ..

....

كان كل درس من الدروس ينتهى على هذا النحو .. **وكانت حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق . وأخذت تسألنى عن ماضى فى كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه منى ، وكلما قصصت عليها بعض ذكرياتى رأيتها تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا فى معاملتى ، أقول ((أكثر جدا)) لان طفولتى البائسة كانت توقظ فى نفسها فضلا عن الشفقة ، نوعا من الاحترام** . وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نغرق عادة فى مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لى ماضى شرحا يتراءى لى معه اننى أعيشه مرة

اخرى فى الواقع ، واعرف عنه أمورا كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى ان هذه المناقشات مسرفة فى الجد ، بل كانت ترى أنها فى غير محلها ــ حين تلاحظ انهمار دموعى بالرغم منى ــ أما انا فكنت ارى نقيض رايها تماما. لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » ، أتخفف من آلامى الى حد اننى لاأعود ارى فى قدرى شيئا محزنا . والذى احمده لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو اننى كنت مضطرة الى ان احبها اكثر فأكثر ، يوما بعد يوم . ان مدام ليوتار لم تكن تعلم ان كل ما قد اثار فى نفسى ، فى الماضى، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد من حدته شيئا بعد شيء ، وينصهر فىانسجام متماسك قوى ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتتصور الى أى حد قد تسممت نفسى بما قاسيت . . الى أى حد ارهقتنى قسوة القدر الغاشم . . الى اى حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتينى الضربة التى تهوى على راسي !

***

وكنا في أول الصباح نجتمع فى حجرة الأطفال ، فنوقظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضى الى العمل . كنا ندرس كثيرا جدا ، ولكن . . الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التى تشتمل على كل شيء ، ولا

تشتمل فى حقيقة الأمر على أى شىء محدد ! .. **كنا نقرأ معا ، ونتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسقى ، فكانت الساعات تنقضى سريعة لا نحس لها انقضاء** .. وفى المساء كثيرا ماكان «ب» ، صديق الكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتى زائرا ، وكانت مدام ليوتار تأتى ايضا ، **فتدور بيننا فى بعض الأحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة** (التى لا نعرفها فى حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضى والمستقبل ، ونقضى نصف الليل فى مثل هذه الأحاديث . وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، واتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى .

..وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى . وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولكنى ماكنت لأتعلم منهم شيئا لولا الكسندرين ميخائيلوفنا . ما كنت لولاها لازيد ، مع استاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عيناى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة . اما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوال، **حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لاتروى ظمانا ؛**

وحتى أصبحنا فى حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقراءة بعضها !

.. على انه لابد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات . وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر . الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، نتعلم التاريخ — أنا والكسندرين ميخائيلوفنا — على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن الكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ..

واذكر اننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت اشعر بها بعد هذه القراءات . كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ . وكنا نقرأ ، عدا السطور ، مابين السطور . وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تجود القراءة حتى لكأن كل ما تقرؤه قد وقع لها . ولكن يجب أن أعترف ان ثمة شيئا مضحكا فى هذه الحماسة لتى كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : انا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشقة وعناء !

(وكنت أعلم أن الكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبي

عزاء وسلوى) . واذكر أننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيرا غريبا وأنا أنظر اليها . **كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيرا عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !**

***

وبلغت الثالثةعشرةمن عمرى. وازدادت صحة الكسندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءا على سوء . اصبحت أسرع الى الاهتياج مما كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يغشاها من حين الى حين دون ما سبب ، وكثرت زيارات زوجها لها . واصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا انه ظل على عادته حزينا كئيبا لايكاد ينبس بكلمة . وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو اقوى وأعنف . ان مشاعر جديدة تتكون الآن فىنفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة . صرت ابحث ، وافترض ، واستنتج ، واصبح السر الذى احسبه مرفرفا فى هذه الاسرة يقلقنى أكثر فأكثر ..

وكنت فى بعض اللحظات احسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم . وفى لحظات اخرى يضعف شعورى بذلك ويقل اهتمامى بالأمر ، بل احس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت احب أن اعرفه ، ولا أعود أحفل به . وكنت فىأحيان اخرى أجد لذة كبيرة فى أن ابقى وحدى ، غارقة فى أفكارى .

وكانت تلك الأيام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى، تلك التى أحببت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة افكر بغير انقطاع ، واتخيل ، واحلم ، وانا قابعة فى ركنى .. تلك الفترة التى كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة فى ضروب من الأوهام يلفقها خيالى من هنا ومن هناك . الا ان ثمة فرقا بين الفترتين : فصبرى الآن أفرغ ، وقلقى أقوى ، واندفاعاتى الجديدة اوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئى الى الحركة أشد، فكنت لا أستطيع ان اتركز على نقطة واحدة كما كنت فى الماضى .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عنى هى نفسها . **فاننى ، فى هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها . لست الآن طفلة ، وان اسئلتى الآن لكثيرة ، وانى لانظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تغض طرفها .** كانت هنالك لحظات غريبة . وما كنت أستطيع أن أراها تبكى ، وكثيرا ما كانت دموعى تتدفق من عينى غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتمى على عنقها أقبلها فى حرارة . ماذا عساها تقول لى ؟ كنت أشعر اننى عبء عليها !

وفى لحظات أخرى ــ وكانت تلك أكثر اللحظات قسوة وحزنا ــ كانت تعانقنى هى نفسها عناقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد .. وفى تلك اللحظات كانت كأنها تستدر حبى ،

كانها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أننى قادرة على ان افهمها وعلى أن أشاركها المها ! .. على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا . كان ذلك من الوضوح بحيث كنت اراني فى بعض الاحيان ابتعد عنهـا فجأة ، اذ يؤلمنى ان أبقى الى جانبها . ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى . على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحيلولة بينها وبين الموسيقى . . أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر . ان الكسندرين ميخائيلوفنـا لا تدرى الآن ماذا ينبغى أن تقرأ معى . فمن الممكن أن نتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا الى شىء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا . وحاولنا كلتانا أن نتحاشى أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التى تنفذ الى صميم الاشياء ..

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ودون أن يكون ذلك فى الحسبان ، أن يفرض على حيـاتى مجـرى آخـر ، فاذا انتبـاهى ، وعواطفى ، وقلبى ، ورأسى ، ووجـودى كلـه ، يتـخذ اتخـاذا جـديدا ، يكتنفه التوتر الحمـاسى القوى . رايتنى فجأة ، دون ان الاحظ ذلك ، أنتقل الى عالم جديد . ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن انظر حولى ، ولا أن أفكر . كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ،

الا ان الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى، مغمضة العينين. اهملت الامور التي كانت تقلقني ، والتي كنت ابحث فيها عن مخرج دون أن اظفر بطائل ، وانا أشد ماأكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت هذه الأمور مدة طويلة . واليكم كيف تطورت الامور :

***

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب . يؤدى أحدهما الى الاجنحة الكبرى ويؤدى الثانى الى غرفة الأطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة . وكان للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتى . فى هذه الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل ناسخا وقيما على البيت فى آن واحد . وكان مفتاح المكتبة فى عهدته . وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت بهذا المفتاح على ارض الحجرة . كان حب الاستطلاع اقوى من اى شىء آخر ؛ فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة . انها حجرة واسعة ، مضاءة أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتبا . من هذه الكتب كمية كبيرة انتقلت الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا ان قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تنقطع عن شراء الكتب .

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر .. فلم يكن صعبا على أن اعتقد أن هذه الكتب الممنوعة عنى تنطوى على سر . لهذا السبب رأيتنى ـ وقد عصف بى ظما الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا ـ رأيتنى أفتح الخزانة الاولى وأخرج منها كتابا .
كانت تلك خزانة الروايات . ثم اغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القراءة فى حياتى . فلما عدت الى غرفتى ، أغلقتها على ، وفتحت الرواية ..

..غير اننى كنت عاجزة عن القراءة . كان يشغلنى امر آخر ، هو أن اطمئن اطمئنانا نهائيا الى اننى أستطيع دخول المكتبة دون أن ينتبه أحد الى أننى آخذ منها الكتب التى اهواها . وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة اخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح . كان ذلك اول عمل سىء اقترفه . وانتظرت النتائج !

ولكن الامور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطرس الكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن

يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبة ، فانتهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع . واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر . واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام . وينبغى أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا .

ومنذ تلك اللحظة اخذت أقرأ فى كثير من الشره ، وسرعان ما اصبحت القراءة هوى قويا يملك على نفسى ، فاذا جميع حاجاتى الجديدة ، وصبواتى الحديثة ، وجميع اندفاعات مراهقتى ، هذه الاندفاعات التى مازالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضطراب ، وكل ما قد أثاره عقلى المبكر اثارة قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظر ، فيندفع فيه لمدى طويل .
كنت كأننى شبعت من هذا الغذاء الجديد شبعا تاما ، ثم وجدت الآن طريقى الصحيحة . وسرعان ماأصبح قلبي من

النشوة وعقلى من الافتتان وخيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد احاط بى حتى ذلك الحين . كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحياة الجديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع . كأن القدر ، قبل ان يدفعنى فى الطريق المجهولة رفعنى الى قمة عالية ، حتى يرينى مستقبلى فى صورة رائعة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالآمال الساحرة . ان الحظ يتيح لى الآن ان اجرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع العواطف العذبة التى تفيض بها روحى الشابة .

.. وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدى ، دون تخير ، غير أن ماكنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعة بحيث كنت لا أستطيع أن أجد أية متعة فى قراءة صفحات أباحية أو بذيئة . كانت غريزتى الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كل هذا كان يحمينى ويحرسنى . وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئا اعرفه منذ مدةطويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوانات المختلفة المعروضة امامى فى صور غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ،

انني اعرفها من قبل !

وكيف لا اصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ، وانا أجد فى كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، والقانون الذى تفرضه على الحياة الانسانية نفس روح المغامرة ، هذا القانون المشتق من قانون أساسى آخر ، هو شرط السلامة ، والخلاص ، والسعادة ؟ هذا القانون كنت أتحسسه وكنت أحاول أن أحزره بكل ما أوتيت من قوة ، بكل الغرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية . كنت اشعر اننى معصومة مقدما ، كان هناك شخصا يرشدنى ويطلب الى أن اكون ساهرة يقظة ..

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة . الا أن خيالى ، كما قلت ، كان يغلب اندفاعى . فكانت جراتى ، فى الواقع ، لا تتعدى احلامى . وكانت الفريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل. وكانما أردت ان اكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت ـ على غير شعور منى ـ أن أكتفى فى أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى ليس فيه الا متعة وفرح ، هذاالعالم الذى ليس للشقاء فيه ـ ان وجد ـ

الا دور سلبى ، دور موقت ، دور لابد منه للتناقضات المتعة ، لتبدلات القدر التى تمد رواياتى بخواتيمها السعيدة . أو هكذا على الأقل ما أفهمه الآن من حالتى النفسية فى ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التى ليس فيها شىء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة كل الغرابة عن حياة الاشخاص الذين يحيطون بى ، قد استمرت ثلاث سنوات طوال ..

***

وكانت هذه الحياة سرى المكنون ، الخفى ، أخشى عليه أن يكتشف .. حتى لقد صرت أخشى اية نظرة يلقيها على احد ، مخافة أن ينفذ الى أعماقى ويكشف عن سرى . وعشت حياة داخلية غنية ، فكنت اترك العنان لخيالى .. سيما وقد كان كل من فى البيت يعيش فى عزلة تامة ، بعيدا عن الآخرين ، فى صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، او هذا ما حدث لى على كل حال ، **فما من شىء تغير من حولى ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل شىء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد . فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة ، مملة ..** ولولا أن سرى كان يواسينى ، ولولا أن نشاطى كان يسلينى (أدرك ذلك اليوم) لبلغ بى الضجر مبلغا كان يمكن أن يدفعنى

الى أى تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينـة .. الامر الذى كان يمكن أن يؤدى الى هلاكى .

كانت مدام ليوتار قدبدأت تشيخ وتهرم ، بحيث أصبحت لا تكاد تترك غرفتهـا . وكان الولدان ما يزلان صـغيرين ، أما « ب » فكان لايخـرج عن سلوكه التى يجرى على وتيرة واحدة ، وأما زوج الكسندرين ميخائيلوفنا فكان محتفظـا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، **وكان السر الخفى بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد فى نظرى خطرا وتهديدا ، وكنت ازداد خوفا على الكسندرين ميخائيلوفنا .** كانت حياتها الخالية من الفرح ، حياتها المقيمة ، تذوى أمام بصرى يوما بعد يوم ، وصحتها تسوء اكثر فأكثر .. وكأن نوعا من اليأس قد سيطر على روحها لآخر الامر ، فكان المرء يحس أنها ترزح تحت وطأة شىء مجهـول ، لايمكن ادراكه أو تعليله .. شىء فظيع رهيب .. غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب لا مفر !

.. وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا . وثمة شىء كان يسترعى انتباهى أكثر من اى شىء آخر : كان يلوح لى أنها تبتعد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرها منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد فى بعض اللحظات إنها لم تعد تحبنى البتة ، كأنما

انا ازعجها . وسبق أن قلت انني قد ابتعدت عنها فى أول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الى ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم اطلع عليه أحدا . فلما اصبحنا سرين ، لم نتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى .

***

ولا استطيع أن أتذكر — دون أن أبكى — الى أى حد كان تعلقى بها شديدا ، والى أى حد اغدقت على من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاتها ، الى درجة حب الام . والحق أن تباريحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى، وحاولت جهدى ان لا الفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة عشرة من عمرى دون أن يفطن أحد الى ذلك . الا أن الكسندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولها نظرات صافية جدا ، فاذا هى فجأة، وقد تملكها قلق على ، تدعونى الى غرفتها ، وتنتزعنى من دروسى او مشاغلى، وتغمرنى بوابل من الاسئلة، كأنها تطوف الى معرفتى

على أكمل نحو ، ثم لاتتركنى خلال أيام برمتها ، محاولة ان تحزر كل ما يستهوينى ، وأن تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيها شىء غير نموى وتطورى ، غير حالتى الراهنة ومستقبلى ، مبدية استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب .

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى فى تلك الفترة ، كانت تعمد فى سبيل ذلك الى وسائل ساذجة مسرفة فى السذاجة ، وكنت أدرك نياتها ومقاصدها بسهولة . واكتشفت هى فجأة أننى لم أخرج فى قراءاتى عن كتب الاطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشر من العمر ، فهالها ذلك كثيرا ، وحزرت انا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ، وظلت بعدذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تختبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب (ايفانويه) ، الذى كنت قد قراته ثلاث مرات على الاقل ، وراقبت انفعالاتى فى خجل يقظ ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات . وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر - وكان بالنسبة الى ظاهريا - وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغ من فرحى اننى كدت اعترف لها بكل شىء . وحين وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت اوجها . وكانت كل ملاحظة من الملاحظات التى أبديها

اثناء القراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صـادقا ، فأدركت « الكسندرين » أن نموى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثارت اعتزازها ، فأخـذت تتابع تربيتى مرة اخرى فى كثير من الحماسة ، وانتوت أن لاتتركنى لنفسى بعد الآن أبدا .. **غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقد تكفل القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد .. فهاهى تصاب بنكسة فى صحتها ، وهاهو حزنها الابدى يعود فيلازمها ، وها نحن نتباعد ، ثم تزول الالفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال والبغض !**

***

غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنـا ، فكانت القراءة المشتركة أحيـانا ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احدانا فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شىء .. بل تجعلنا نفرط فى النسيان فى بعض الاحيان ، حتى لتلبث احدانا بعدئذ كأنما هى خجلى من الاخرى .. وما هى الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى الاخرى فى استطلاع حذر هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزا يقف عنده تقاربنا ، واننا لا نستطيع ان تجتاز هذا الحاجز برغم رغبتنا فى ذلك .. !

وذات مساء ، ساعة الغسق ، كنت فى مخدع الكسندرين

ميخائيلوفنا ، أقرأ كتابا فى ذهول . وكانت هى تعزف على البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالى تؤثره ، حتى اذا وصلت الى مقطع معين من هذا اللحن رأيتنى وقد دبت حماسة من الموسيقى فى قلبى آخذ فى الغناء بصوت مخفوض خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماستى أن أنهض من مكانى وأقترب من البيانو .. وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا أدركت اهتمامى هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمة من النغمات التى كنت أغنيها ، وهى أشد ما تكون دهشة ..

لقد فاجأها صوتى مفاجأة كبيرة . لم أكن قد غنيت أمامها أبدا قبل تلك اللحظة . ثم اننى كنت أجهل – أنا نفسى – مقدرتى فى الغناء . وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتى أكثر فأكثر ، وهى تتابع غنائى بعزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك فى حماستى أنا الاخرى .. حتى فرغنا ، فاذا هى من اعجابها تمسك يدى فى تأثر قوى ، وتنظر الى فرحة وهى تقول :

– آنيت .. آنيت . ان لك صوتا رائعا ! رباه ! كيف أمكن أن لا ألحظ ذلك !

فأجبت وقد غمرنى فرح شديد :

– لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى .

– ليباركك الله ، أيتها البنية التى لا تعرف الكبرياء ولا

الزهو ! أشكرى الله على ما أودع فيك من مواهب . من يدرى ... آه ، رباه ! رباه !

كانت من شدة التأثر لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبنى . كانت تلك اللحظة من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقارب بعد عهدنا به كثيرا ، وما هى الا ساعة حتى كان البيت كله فى عيد ، وأرسلوا يستدعون « ب » على الفور !

وفى انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر اعرفه معرفة أتم ، لنجرب لحنا آخر . وكنت فى هذه المرة ارتعد خجلا ووجلا . كنت أخاف أن أخفق فأفسد الاثر الاول .. لكن جرس صوتى سرعان ما طمأننى ورد الى شجاعتى ، وازدادت حيرتى ودهشتى من هذه القوة التى املكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك . وطفح فرح الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديهما ، بل واستدعت خادمتها . ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها فى حجرة عمله تستدعيه – وهو امر ما كان لها ان تسمح لنفسها به فى الاحوال العادية ! – واحسن بطرس الكسندوفتش استقبال النبأ ، وهنانى ، وكان اول من قال ان على أن اتلقى دروسا ، فشعرت

الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هى بشىء !

..واخيرا وصل « ب » ، وكان يحبنى كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبى وعن الماضى ، ثم بعد أن غنيت امامه مرتين أو ثلاثا اعلن وقد لاحت فى وجهه علائم الهم انى مؤهلة للغناء من غير شك ، واننى قد أكون موهوبة ، وأن من الضرورى أن يثقف صوتى على كل حال. ثم كأن « ب » والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا فى الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحى على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما فى الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تآمرهما على ، وهو تآمر مسرف فى السذاجة ، مسرف فى الخرافة على كل حال ، وظللت آتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل قطعة جديدة أغنيها يحاولان أن يحبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلنا جهارا بعض الملاحظات عن اخطائى ..

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان « ب » اول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وحبور — ولم أكن اتصور انه يحمل لى كل هذه العاطفة — وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا .

وقص علينا « ب » حياة بعض المفنين المشهـورين ، وكان يقصها فى حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفتـه .. ثم ارتد الى أبى ، وتحدثنا عنى ، وعن طفولتى ، وعن الامير وعن اسرة الامير ، التى لم أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة . ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف عنها الا القليل . وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئونها لأنه سافر الى موسكو عدة مرات . لكننا حين وصلنامن حديثنا الى هذا الموضع تلفع الكلام بأسرار واحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان اوثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن ادرك كنهها البتة ! .. واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنـا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن «ب » لم يستطع أن يقول بصددها اى شىء واضح ، حتى لقد بدا انه يؤثر ان لا يقول شيئا !

وفجأنى ذلك كثيرا ، اننى لم انس حبى لكاتيـا ، حتى لقد كنت لا أستطيع ان اتصور ـ للحظة واحدة ـ أن قـد طرأ على كاتيا أى تغير مهما يكن شأنه . لقد غاب عنى حتى تلك اللحظة كل شىء : فراقنـا ، والسنوات الطويلة التى قضيناها بعيدتين احداناعن الاخرى دون أن نتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع .. ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالى أبدا ، كانت لا تزال تعيش الى جانبى ، ففى احلامى ، فى رواياتى ، فى مغامراتى الخيالية ، كنا نسير دائما جنبـا الى جنب ،

وقد امسكت كل منا بيد الاخرى . كنت اذا تخيلت نفسى بطلة الكتاب الذى أقرؤه سرعان ما أفسح لصديقتى الاميرة مكانا الى جانبى ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، احدهما من اختراعى !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء استاذ يعلمنى الفناء ، واوصى « ب » بأستاذ هو اشهر الاساتذة وأقدرهم ، فما ان اتى اليوم التالى حتى حضر الينا الايطالى « د » ، فسمع غنائى ووافق على رأى صديقه « ب » ، ثم أضاف الى ذلك اننى اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الآخرين كان ذلك اكثر فائدة بالنسبة لى ، لأن التنافس هنالك سيحملنى على زيادة العناية بتثقيف صوتى ، كما ان المقارنة بين اصوات كثيرة ستفيدنى فى اثراء صوتى . ووافقت الكسندرين ميخائيلوفنا على ذلك ؛ وصرت منذ ذلك الحين أذهب ثلاث مرات فى الاسبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبنى وصيفة .

والآن أريد أن اقص حادثا غريبا كان له فى نفسى تاثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة . كنت قدبلغت السادسة عشرة من عمرى ، وقد أصبت فجاة فى ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لاسبيل الى دفعه . كنت اعانى ضربا من فراغ النفس وهيمنا ، لا يطاق ولا يفهم . كان

« ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح : كان ذلك اول عمل سيء اقترفته . » (ص ٢٢٣)

خيالى قد كبا ، ووثباتى قدانطفأت ، واحلامى قدتبددت ـ حتى لكأننى لا استطيع ان أحلم ! ـ وحل محـــل الحماســة القديمة فتور شديد ، حتى انموهبتى التى كان يعترف بها الجميع والتى كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون ان اشعر من هذا الاهمـــال بأى ندم . لم يبق ثمةشىء يشوقنى أويجذبنى ، حتىان الكسندرينميخائيلو فنا أصبحت لا تثير فى الا البرودة ، وكنت الوم نفسى على ذلك، سيما واننى لم أكن أستطيع الا أن الاحظه . وكان تبلـــد شعورى مشوبا بحزن لاعلة له ، ونوبات من البكاء مفاجئة. وصرت أنشد الخلوة والوحدة .

فى تلك الفترة هزنى هذا الحادث الغريب الذى سأقصه الآن ، وقلب نفسى رأســا على عقب ، وأحال الخـــدر الى عاصفة . لقـــد جرح قلبى جرحا هائـــلا .. واليكم كيف تم ذلك .

- ٨ -

دخلت المكتبة ذات يوم (وكانت تلك لحظة لن انساها ما حييت) وتناولت رواية من تأليف « ولتر سكوت » هى (مياه سان رونان) - وكانت الكتاب الوحيد الذى لم أقرأه بعد - واذكر ان نوعا من القلق المر كان كأنما يجعلنى أوجس امرا . كانت بى رغبة فى البكاء . وكان النور فى الغرفة ساطعا ، من اشعة الشمس الغاربة التى تتدفق فى أرجاء الغرفة من النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألىء . وكان يسود ثمة سكون تام .. ما من مخلوق فى الغرف المجاورة .. كان بطرس الكسندوفتش غائبا عن البيت ، والكسندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى سريرها .

وطفقت ابكى دون ان أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى، كانما أريد ان احزر شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر امام عينى .. كنت كاننى افتش عن نبوءة أو فال ، كمايفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على غير هدى . ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقله وقواه الى اقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيوف

من النبوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها . ان كياننـا كله ، وقد جرفه الظما الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عنـدئذ للأمل ، مهمـا يكن هذا الامل أعمى ومهما يكن عنيفا ، وينادى المستقبل بكل ما فيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة .. كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات .

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة اخـرى املا فى ان اقرا مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا .. فاذا بى أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيـات يظهر من شدة انضغاط حوافيها انها نسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة . نظرت الى الرسالة فى كثير من حب الاستطـلاع . كانت بلا عنوان ، ومذيلة بهـذا التوقيع : « س . و » .. واشتد انتباهى ، ونشرت طيات الرسالة ــ وكانت اشبـه بالملتصقة ، مصفرة ، مهترئة ــ وكان واضحا أن صاحبهـا قـد قراهـا واعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنزا من الكنوز !

وكان الحبر قد شحب ، من بعد عهد الكتابة .. وقفزت الى عينى بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال . واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب

الرســـالة بين يدى دون ان أصمم على البـــدء بقراءتها . ونظرت اليها فجأة من خلال النور : نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها .. ومازالت بقعها فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد امحت بتأثيرهـا أو تشوهت . **من عسى ان يكون ساكب هذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الاولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت من صدرى صرخة** . أعدت الكتاب الى مكانه ، واغلقت المكتبة ، ودسست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى الوذ بها لاستأنف القراءة . كان قلبى يدق دقا عنيفا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتتراقص امام عينى . ولم استطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة .

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا . ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقـة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه . كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة أقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع ان امنع نفسى عن قراءتها . كانت الرسالة موجهة الى .. الكسندرين ميخائيلوفنا .

لسوف انسخ لكم هـذه الرســالة . كنت قـد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد ان قرأتها ثم أعدت قراءتهـا لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، **وكان حياتى قد**

تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد . لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا . وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأنما أنا فقدت كل شىء ، كأنما انتزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

ترى من كاتب هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، وعلى وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على الغاز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصددها فى ظنون وتخمينات ! .. على اننى فهمتها فهما صائبا . وكان الاسلوب وحده يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التى تحطمت فسحقت قلبين . ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهى كما قلت كافية لتكشف لى عن السر . ولكن اليكم نص هذه الرسالة، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسينى . وانا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول . يجب أن نفترق . لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، ياعزيزتى الرقيقة الحزينة ،

اعرف ذلك منذ زمان طويل ، غيراننى لم أفهمه الا اليوم . طوال العهد الذى أحببتنى فيه ، كان قلبى ، رغم حبك قلقا معذبا فى كل لحظة . **هل تصدقين اننى من شدة ما تألمت فى سبيل حبنا أشعر الآن بشىء من الراحة ؟ كنت اعرف منذ زمان طويل أن علاقتنا ستنتهى لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم ..** اسمعى ، ياالكسندرين ، اننا لم نكن متكافئين ، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما . لم أكن جديرا بك ، وعلى ان أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتى الذاهبة ! قولى ، ماذا كنت قبل ان اعرفك ؟ رباه ! هاتان سنتان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا استطيع أن أفهم لماذا احببتنى أنت ! لا استطيع ان افهم كيف يمكن ان يقع شىء كهذا ! ؟

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتى الى ، وحتى تختاريننى ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسا . ولم اكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بى حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى . **كان كل شىء قد اختنق فى نفسى حتى كنت لا ارى فى الدنيا ما هو أهم شأنا من عملى اليومى الموحش ..**

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا احفل حتى بهذا الامر . وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء واحلم كما يحلم غبى من الاغبياء . ولكن كان قد انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، واصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا اشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى يغط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت أؤمن بذلك ، ولا اثور عليه ، لعلمى بأن الامر يجب ان يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن افهم أن فى وسعى ان اجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة ، ولم تعرف روحى روحك ، وان احسست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الرائعة ..

« على أن احساسى هذا كان غامضا اصم . كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يغرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! .. وحين فهمت كل شيء فى ذلك المساء ،

بعد الاقوال التى هزت اعمق اعمــاق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شىء ، وبلغ انفعالى من القوة ان اعتقــدت اننى لا افهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شىء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . **لست الآن ما كنته من قبل ان أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منــذ زمان طويل . غير أننى سكت ، ولئن كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تتركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !**

«**هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد الهبنى الهوى كالنــار ، نفــذ الى دمى كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا** . كنت سكرانا ، كنت مشلولا ، كنت مخدرا ، فلم ازد على أن أستجبت لحبك النقى ، لحبك الرءوف الحنون الرحيم ، دون ان اشعر اننى كفء لك ، دون ان اكون جديرا بك . كنت لا اعرفك . واستجبت لك استجابتى لمن كانت فى نظرى تهبط الى ، لا استجابتى لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها . هل تعلمين ماذاظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد ان اسىء اليك باعتراف كهذا . على اننى احب

أن أؤكد لك شيئا : لقد خدعت فى أمرى كثيرا ، فماكان يمكن ان ارقى اليك فى يوم من الايـــام . وبعـــد ان فهمتك ، أصبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، انت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتنى هذا الحب القوى . .

«غير أن ذلك لايكفر عن خطئى . ان حبى الذى شرف بك لم يكن حبا . كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبيح لنفسى ان احبك . لأن الحب يقوم على وصـــال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهـــلا لها ! . . كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هذه الاشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق . . آه ! هل تذكرين ، بعد هداة الانفعـــال الاول ، حين استطاعت عيناى المضطربتان أن تريا رؤية واضحة ، هل تذكرين كيف أن شعورى الاول عندئذ كان دهشة وحيرة وهلعا ، وكيف اننى ارتميت على قدميك اشـــهق وأنتحب ؟ هـــل تذكرين كيف انك سألتينى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئذ ، لاننى كنت لا أستطيع أن اجيبك . كانت السعادة قد مزقت نفسى . كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل . وكانت دموعى تقول لى : « علام وهب لى كل هـــذا ؟

فيم استحقه ؟ كيف استحققت مثل هذه السعـادة ؟

« أختاه .. يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة .. آه .. كم من مرة قبلت ثوبك خفيـــة ، دون أن يدور ذلك فى خلـدك ، لعلمى بأننى غير خليق بك ! وكانت انفاسى تختنق ، وكان قلبى يأخـذ فى خفقان بطىء ، كان يدق دقات قوية صماء ، كانه يوشك ان يتوقف الى الابد . وكنت حين امسك يديك ، أشحب وارتجف ، لان صفاء روحك كان يخجلنى ويرهبنى ! أواه . اننى عاجـز عن أن اقـول لك كل مـا تجمع فى قلبى ، كل ما كنت أود لو أعبر لك عنه . **هل تعلمين ان حنانك ورقتك الدائمة كانا يؤلمانى ؟ حين قبلتنى (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حييت) شعرت بضباب يغشى عينى ، وشعرت بنفسى كلها تذوب دفعة واحدة ! .. لمـاذا لم امت فى تلك اللحظـة على قـدميك ؟**

ترين اننى أخاطبك الآن بصيغـة المفرد ، لأول مرة ، رغم انك طلبت الى ذلك منذ زمان طويل . هل تفهمين ماذا أعنى بذلك ؟ .. اننى اريد أن أقول لك كل شىء ، وسـأقول لك كل شىء : نعـم ، انك تحبيننى كثيرا ، تحبيننى كما تحب اخت أخاها ، وتحبيننى كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحييت قلبي : لأنك انقذت روحي

من خدرها ، لانك غرست فى صدرى أملا عذبا ، أماأنا فلم أستطع ، لم أجرؤ . اننى حتى الآن لم أستطع ان أناديك ياأختـاه ، لأننى لا أقدر أن أكون أخاك ،لأننى لست كفئا لك ، لأنك خدعت فى أمرى !

« ترين اننى لا اتحدث الا عن نفسى . حتى فى هذه اللحظة التى أعانى فيهـا شـقاء فظيعا ، لا أفكر الا فى نفسى ، رغم علمى بأنك تتعذبين قلقة على مصيرى . آه . لاتتعذبى من أجلى ، ياصديقتى الحنون . هل تعلمين الى أى حد أشعر بالصغار فى نظر نفسى ؟ لقد اكتشف كل شىء وأثير حـوله صخب كثير ! .. **ولســوف ينبذونك بسببى ، لسوف يغرقونك بالاحتقــار ، لسوف يسخرون منك ، لاننى فى نظرهم مخـلوق حقير جدا ! .. أواه ! .. ما أكبر جريمتى لاننى لم أكن جديرا بك ! .. لو قد كنت أخطر منزلة . لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه . لو قد كنت شخصية فى نظرهم ، اذن لغفـروا لك ! .. ولكننى امرؤ نكرة لاقيمة لى البتة ، امرؤ مضحك ، وهل اسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟**

« وفى الواقع ، من هم الذين اسـتنكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ .. ولان أمثال هؤلاء النـاس

استنكروا ، فقدت انا صوابى . لقد كنت دائما رجلا ضعيفا . هل تعلمين فى اية حال انا الآن ؟ .. اننى اسخر من نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لايمكن الا ان اكون مضحكا وكريها . اننى أشعر بذلك . اننى اكره وجهى ، اكره كيانى كله ، اكره عاداتى التى ليس فيها شىء من اللباقة واللطف . ولقد كرهتها دائما . اواه ! اغفرى لى يأسى الفظ . لقد علمتنى أن أقول لك كل شىء . ولقد فقدتك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة ، لاننى لم اكن جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبنى . انها تدور فى راسى بلا توقف ، انها تضنينى وتسمم قلبى . يتراءى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى حسبت انك ترينه فى .. يتراءى لى دائما انك خدعت فى امرى . ذلك مايؤلمنى ، ذلك ما يعذبنى حتى ليكاد يميتنى ، ذلك مايطيش لبى ويفقدني عقلي ، ويجعلني أشبه بمجنون !

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفوا كل شىء .. الآن وقد صرخوا ماشاء لهم الصراخ ؛ وأنبوا ما شاء لهم التانيب (سمعتهم يفعلون !) ..

الآن وقد صغرت في نظر نفسي .. الآن وقد شعرت بالعار يجللني ، وشعرت بالعار لك أيضا لانك اخترتني .. الآن وقد لعنت نفسي ، فقد وجب على أن أهرب ، أن اختفي ، لأوفر لك الهدوء .لن تريني بعد الآن أبدا ، أبدا . يجب ان اختفي ، ان القدر يأمر بذلك ! ..لقد وهب لي القدر اكثر مما استحق. لقد اخطأ القدر ، وهاهو يتلافى الآن خطيئته ويسترد كل شيء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وهانحن الآن ننفصل الى لقاء آت ! .. ترى أين يكون هذا اللقاء الآتي ، ومتى يكون ؟.. آه ! قولي لي ، ياحبيبة ، أين سنلتقي ؟ .. أين ينبغي أن أمضي باحثا عنك ، وهل أتعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفينني اذا لقيتني ؟ .. ان روحي كلها مملأى بك ، أواه ! لم هذا العقاب ؟ .. لماذا ننفصل ؟ .. قولي لي — فاني لا أفهم لانني أصبحت لا أدرك شيئا — قولي لي كيف يمزق المرء حياته جزئين ؟ .. كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟ آه .. لا استطيع ان أتصور انني لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

« رباه .. ما أشد ماصرخوا ! .. لكم أخاف عليك الآن ! .. لقد لقيت زوجك منذ قليل . اننا كلينا

غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم فى حقه . **انه يعرف كل شىء . لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شىء. منذ مدة طويلة أصبح كل شىء واضحا أمام باصرته وضوح النهار . لقد دافع عنك دفاع البطل ، وسينقذك . سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا.هو ينقذك وانا أهرب !..** لقد ارتميت عليه أريد ان أقبل يده.. نطلب الى أن امضى على الفور ، ونفذت الامر . يقال انه قد تخاصم معهم بسببك . جميعهم هناك ، ضدك.حتى لقد اتهموه بالمجاراة والضعف. يا الهى! ماذا سيقولون أيضا ؟ انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم ! سامحيهم ياعزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى أكثر منك بكثير..

« لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا اكتب اليك . ماذا قلت لك أمس مودعا ؟ .. لقد نسيت . كنت خارجا عن طورى .. وكنت تبكين ... اغفرى لى هذه الدموع .. اننى ضعيف . اننى جبان !

« كنت أريد أن اقول لك شيئا آخر ايضا . آه ! ليتنى أستطيع مرة أخرى ان اغرق يديك بالدموع

كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة ! .. ليتنى استطيع أن أجثوا مرة أخرى عند قدميك . آه ! .. ليتهم يعلمون شيئا عن جمال عاطفتك ! .. لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهــو والكبرياء .. انهم لا يرون ، ولن يروا أبدا ! .. انهم عاجزون عن ذلك! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أتى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لايستطيعون أن يفهموا شيئا . اية أحجار سـيرجمونك بهـا ايضا ؟ .. اية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟.. آه ، انهم لن يخجلوا ، سـيرفعون الف حجـر ! .. سيجرؤون على رفع الاحجار ، لانهم يعـرفون معنى ذلك : سيرفعون احجارهم جميعا فى وقت واحـد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعة ذلك لانهم بلاخطيئة!.. آه لو علموا ماذا يفعلون ! .. لو امكن أن يروى لهم كل شىء بلا اكراه ، عسى ان يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا اشرارا الى هـذا الحد .. لعلنى اقول فيهم سوءا لاننى فى حالة من الانهيار والياس . ولعل مخاوفى ان تولد فيك شيئا من الهلـع .. فلا تخشيهم ، ولا تخشى شيئا ، ياحبيبتى . سيفهمونك . ألم يفهمك واحـد منهم ؟

نعم . انه زوجك ، فلا تقطعى الرجاء .

وداعا ، وداعا . ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا .. الى الابد .

س.و

***

بلغت سن الاضطراب – على أثر قراءتى الرسالة – اننى ظللت مدة طويلة لا أعى ماحدث لى . كنت مذعورة منهارة فى آن واحد . ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الفنية الحالمة التى عشتها منذ ثلاث سنوات . ادركت هلعة اننى اقبض على سر خطير ، وان هذا السر يربط منذ الآن كل وجودى .. كيف ؟ لا إدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها . اصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن اشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله ..

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم ادع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟.. ماذا عسى ان احمل لهم؟.. وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسر غيرى على حين فجأة ؟ .. اين السبيل الى معرفة ذلك ؟ .. لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا ؟ .. لست أستطيع ان اسكت ، وان امتنع عن الدور الذى عين لى ، وان احبس

ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الابد . وما مصيرى فى هذا كله ؟ . ماذا اعمل ؟ . . ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ . . الف سؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عينى ، والقت بثقلها الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة .

واذكر ان قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الى احساسات جديدة ، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل . ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه . وكنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى . **كنت فى تلك اللحظة اشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر ان مستقبله فى هذه الطريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ماحوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان** . وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة ، وبلغت من انقباض القلب اننى شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن اسمع أحدا ، الى ان اقبل احدا قبلة عنيفة . .

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد اريد ان ابقى وحيدة . فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت

الى جانبها السهرة كلها . كنا وحدنا . ورجوتها أن لاتجلس الى البيانو ، وان لا تطلب الى الفناء . كان كل شىء يشمق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى شىء . واظن أننا بكينا معا . الا اننى اذكر اننى أخفتهــا كثيرا ١٥ فكانت تتوسل الى ان أهدىء روعى وان لا أكون مضــطربة هذا الاضـــطراب كله .. وكانت تراقبنى فى قلق حافل ، وهى تردد اننى مريضة من غير شك ، واننى لا أعتنى بنفسى. واخيرا تركتها وانا لا أدرى ماذا أفعــل ، كنت فى حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد ان انتابتنى حمى شديدة .

***

وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على ان استرد هدوئى ، وعلى أن انظر الى الموقف نظرة واضحة. كنا نعيش عندئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابة لنداء أعماله ، وكان عليــــه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقــــد حــــزنت له الكســـــندرين ميخائيلوفنــا حــزنا هائلا .. وكانت تهدأ فى بعض الاحيان ، ولكنها تعتــــزلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها !.. ثم اننى كنت أنشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب الخانق ،

وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين فى هذا الاهتمام المؤلم ، **وكان يخيل الى أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسى ويشوش كل أفكارى .** وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع لى راحة ..

كنت أتصور هذا الالم الطويل الذى لا مخرج منه ولانهاية له . كنت اتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين ميخائيلوفنا ذليلة دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تنبس بكلمة !.. وكنت أرى ان هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه . **كان يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها ويصب عليها اللعنات .. كنت أرى مجرما يغفر خطايا برىء ، وكان ذلك يمزق قلبى تمزيقا !** وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ، لو استطيع أن اتحاشى هذه الشكوك .. كنت العن هذا الرجل ، وامقت نفسى ، لان افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع أن يبرر مشاعرى . ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه الصرخات الوداعية الرهيبة . وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن كفئا . حاولت ان أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فظيع .

وكان هذا الوداع اليائس يعذبنى : « شعرت بالعار يجللنى ، وشعرت بعار يلطخك أيضا ، لانك اخترتنى ! » .. من كان ذلك الرجل ؟.. وممن كان يتألم هذان المخلوقان ؟.. ماذا كان يعذبهما ؟.. ماذا فقدا ؟.. وكنت اهدىء من روعى واعود فأقرا الرسالة فى انتباه ، فتتمزق نفسى يأســا ، وأحار فى فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدى ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ، وتملكنى انفعال خانق .. والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل على نحو ما ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، وكان ذلك يخيفنى !

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات عربة بطرس الكسندروفتش ــ وكان عائدا من رحلته الى موسكو ــ فانطلقت من صـــدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت انا فى مكانى كالمتجمـــدة . أذكر أننى دهشت الى حد الذعر من انفعالى المباغت . ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فهرعت الى غرفتى . لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذى غشينى فجأة ، ولكننى كنت خائفة من هـــذا الخوف !.. وبعد ربع ساعة استدعونى ، وسلمونى رســالة من الامير . ورايت فى القاعة رجلا لا اعرفــه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقيم بيننا مدة طويلة ..

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهى بعض الاعمال الهـــامة التى تتعلق بالاسرة والتى كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة . أعطانى الوكيل الرسالة وذكر لى ان الاميرة الصغيرة ـ كاتيا ـ كانت تنوى أن تكتب الى أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخـــر دقيقة انها تهيىء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضى أخيرا خالى اليدين ، وهى ترجوه أن يبلغنى انه ليس هنالك فى الواقع أى شىء تريد أن تكتبه الى ، وان كتابة رســـالة لا تعنى شيئا ، وانها سودت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من ان تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع ان نتـــكاتب . ثم كلفته أن يعدنى بأننى سألقاها فى القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتى اللحوحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح فى الواقع ، لأن أسرة الامير تنوى العودة الى بطرسبرج . وقد بلغ من فرحى لسماع هـــذا الكلام اننى لم أستطع أن أملك نفسى ، فهرعت الى غرفتى ، وأغلقت على الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عينى . ان الامير يبشرنى فى رسالته هذه بانه سيرانى قريبا مع كاتيا ، وهو يهنئنى على موهبتى تهنئة حارة ، ويثنى على المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته . وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عذوبة دموعى هذه

كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى . لم أكن أفهم من حالتي هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !

***

وانقضت على ذلك أيام . وفى الفرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الفرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل . وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ..

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يحب أن يتناول الشاى معنا . فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت ان بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك انتظر أوبته . كانت صورته معلقة على الحائط . وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدقت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه . كانت الصورة عالية . ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشىء ، وكنت أود ان ارى الصورة عن كثب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى . كنت فى حاجة لان انعم

النظر فى هذه الصورة وان أفحصها فحصا ، كأنما كنت آمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لانهما كانتا مخبئتين دائما وراء النظارتين .

أذكر انى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة، يدفعنى الى ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يفهم . وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتى ويبررها . وأخذ خيالى يسرح ويمرح ، **فاذا أنا أرى عينى الصورة تشيحان عن نظرتى الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الكذب والخداع ، وبلغت من قوة اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما بحيث تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه . وانطلقت من صدرى صرخة** . وفى هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائى ، فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى فى انتباه شديد . وخيل الى انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا الاخرى ، وقفزت أهبط من فوق الكرسى .

سألنى بلهجة قاسية :

- ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى اول الامر ماذا اقول . ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت اليه - على نحو ما استطعت - دعوة الكسندرين

ميخائيلوفنا . لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمـله ، وانما أذكر اننى حين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجـواب الذى تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت .

فهتفت قائلة :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك احمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك فى المرآة . ماذا بك ؟

فدمدت :

ـ لا ادرى .. لقد سرت مسرعة جدا ..

واستأنفت كلامها قلقة :

ـ ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

ولم أجب . وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطـرس الكسندروفتش ، فهرولت خارجة من الغرفـــة . وانتظرت ساعتين طويلتين وانا اشد ما اكون قلقا . وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى . فمضيت اليها ، فألفيتها صامتة قد لاح على محياها انشغال البال . وحين دخلت ، غرست فى نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من طرفها . كان نوع من الانزعاج يشع فى وجههـا . وسرعان ما أدركت انها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتتحاشى أن تنظر الى ، وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى

يوجهها اليها «ب» ، وكان مظهرها يوحى بأنها تشعر بصداع فى رأسها. وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا مماعهدت فيه ، الا انه كان لايتجه بالكلام الا الى « ب » .

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى البيانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

ـ نعم ، يا آنيت ، غنى لنا أغنيتك الجديدة .

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق .

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقترب من البيانو ، وأن اغنى ، ظللت واقفة فى مكانى ، مضطربة ، مرتبكة ، لا أدرى كيف أخرج من هذا الموقف . ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا باتا !

فسألتنى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدق فى ، ثم تلقى على زوجها نظرة مختلسة :

ـ لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة من اضطراب أعصابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتنى هزة شديدة لم أستطع كتمانها . كنت ارتعد ارتعادا شديدا . وضاق صدرى حتى لم أعد أستطيع الاحتمال ، فأجبت بصوت مهتدج بأننى لااريد أن أغنى لاننى لا استطيع الغناء . وقلت اننى اشعر بأننى

مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا .. يعلم الله ما كان أشد رغبتى لحظتئذ فى أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، فى غياهب غرفتى .

ولاحت فى وجه «ب» دهشة شـديدة . اما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير أنها لم تحتج . واما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من امور أعمـاله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع . الا انه صافح «ب» مودعا على سبيل الاحتيـاط : خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألنى «ب» :

- ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح فى وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

- اننى متعبة جدا ، اننى مريضة جدا .

- أصدقك . ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة .

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صـمتت فجأة . فهتفت وانا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ثاقبة :

- اوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتى ، فغضت طرفهاكمن

ضبط متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتاهاالشاحبتان ببقع حمر خفيفة .. فتناولت يدها وقبلتها .. وتركتنى أفعل ذلك وهى تنظر الى بفرح صادق ساذج .

ـ اغفرى لى اننى كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكننى أؤكد لك اننى مريضة . لا تغضبى . دعينى أذهب .

قلت ذلك وأنا فى حالة انفعال .

ـ اننا جميعا أطفال !

ثم همست فى أذنى :

ـ أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقاء . وأتمنى لك الابلال من مرضك . ولكننى أناشدك الله أن لا تؤاخذينى .

فقلت وقد هزنى رجاؤها الساذج هزا قويا :

ـ أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هى تخاف نفسها فجأة ، وكررت سؤالى قائلة :

ـ لماذا ؟

ثم اضافت :

ـ انك ترين حالتى يا نيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت أذكى منى . اننى أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شـــديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه . بربك اصمتى !

ثم قبلت يدها مرة أخرى وانسحبت .

***

وتملكنى اسف شديد وقلق عنيف ، وانا أؤاخذ نفسى على اننى لم اكن حكيمـــة حذرة ولم احسن التصرف . كنت اشعر بخجل شديد يغريني بالبكاء . ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ..

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى كان أول ما تبادر الى ذهنى هو أن ليلة البارحة كانت حلمـــا مزعجا ، كانت سرابا . . لقد تهالكنا على أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خرافتنا ، الى اننا لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية . وقلت لنفسى ان الآفة كلهـا ترجع الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكرى مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالى الى حد الافراط ، فرأيت من الافضل أن ادعها جانبا . وما ان عزمت امرى على ذلك حتى شعرت بقلقى يخف ، وحين ايقنت ان فى وسعى أن التزم قرارى بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء فى طمأنينة وفرح .

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابى . كنت أحب كثيرا هذه الرحلة الصباحية الى أستاذى . لقد كان يمتعنى جدا أن أجتاز المدينة وهى تستعيد نشاطها المألوف فى تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح • كنا نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظرى ، ولا سيما هذا التناقض الذى أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن الذى ينتظرنى على بعد خطوتين ، فى الطابق الثانى من بناية كبيرة ، يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى . كنت أمضى الى درسى مارة بين هؤلاء الناس المنهمكين فى أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » العجوز التى تصحبنى تحملنى ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسى بصدد استاذى أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالايطالى ولا هو بالفرنسى ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة فى بعض اللحظات ، ولكنه فى الاغلب دعى ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسلينى : يضحكنى تارة ، ويحملنى على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فنى ، أحبه فى خجل ، وأحبه فى رجاء قوى يجعلنى « أبنى آلاف القصور فى أسبانيا » ، وأتخيل لنفسى مستقبلا رائعا مشرق الالوان ،

فكنت اعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسى حماسة ونشاطا ..

وقد كنت فى مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسى الى البيت فى الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همى ، واسترسلت فى أحلام فرحة . الا اننى انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذى يهبط السلم يرن من فوقى . فانتابتنى لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج .. وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسى قوية واضحة ، حتى لم استطع ان اخفى قلقى ، وانحنيت له انحناءة خفيفة .. ولا شك أن وجهى كان لحظتئذ معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهى من الانفعال ، وتابعت صعودى وانا أكاد اركض .. بينما دمدم هو ببضع كلمات ورائى ، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكى من شدة الاضطراب ، وانا لا افهم ماذا انتابنى ، وظللت طوال فترة الصباح انكر نفسى من فرط التغير الذى اصابنى .. لا ادرى على اى أمر أعزم ، ولا كيف اخرج من هذه الدوامة . واقسمت الف مرة أن اهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف الف مرة يلم بى من جديد . كنت أشعر أننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك

فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا !.. لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الى . وما أن ألقت ببصرها على حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلت الكسندرين ميخائيلوفنـــا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى ، عنايتها بطفلة ..

.. غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعباتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالخجل حين انظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسحبت وهى اشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى فى بكاء شديد . وعند المساء رأيتنى احسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرســـالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وان اعترف لها بكل شىء !.. أردت أن أعترف لها بالعـــــذاب الذى كابدته ، بالشكوك التى راودتنى ، وان أقبلها قبلة تحمل كل الحب القلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وان اقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى افتح لها قلبى رحبا واسعا ، وان عليها ان تنظر الى نفسى فتجد فيهـــا

العاطفة المشبوبة الراسخة التى احملها لها .

رباه ! كنت اعلم ، كنت اشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له قلبها ، الا انه بدا لى اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها، بما يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقول . كنت افهم قلقها - ولو فهما غامضا - وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن تخشى حكمى عليها ، أثور ثورة قوية.. يا عزيزتى ، يا عزيزتى المسكينة ، فيم أنت مذنبة ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكى بين قدميها .. كان الشعور بأنها مظلومة يثيرنى ثورة عنيفة حتى لكأننى مجنونة . والحق اننى لم أكن أدرى ماذا أفعل .. ولم أدرك ذلك الا فيما بعد ، حين تدخلت مصادفة من المصادفات فأنقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ اوقفتنى عند الخطوة الاولى . وكان الذعر يتملكنى أيضا . هل كان يمكن ان ينبعث الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟.. هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى على الا أن اجتاز غرفتين حتى أصل الى غرفتها .. فاذا ببطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبى ، ويمر أمامى دون أن يرانى . كان ذاهبا اليها هو الاخر ، فوقفت فى مكانى مشدوهة، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن اصادفه فى مثل هذه اللحظة!

وكنت على وشك أن أعود أدراجى ، حين سمرنى حب الاستطلاع فى مكانى فجأة اذ رأيته يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره ، ويدندن – ياللدهشة ! – بأغنية ما !

.. وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة، من أيام الطفولة .. سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :

.. خلال السنة الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظرى واثرت فى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحة جلية .. ظاهرة لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هذه الظاهرة أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له تعليلا . سبق أن قلت اننى ما شعرت يوما بشىء من الارتياح ازاء هذا الرجل . وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالح ، المقطب ، المهموم ، يبث فى نفسى الخوف والقلق . وذكرت أيضا أن الساعات التى قضيتها معه على مائدة الشاى فى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسى مؤلمة ؛ ووصفت ما انتابنى من انقباض الصدر حين شهدت – مرتين أو ثلاثا – أزمات عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ..

ولقد كان يتفق لى ان اصادفه ، كما اصادفه الآن ، فى هذه الغرفة نفسها ، فى هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلى الى

حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت اشعر بخجل كالذى يشعر به الاطفال ، فأنزوى فى زاوية ما كأننى مذنبة ، ادعو الله ان لا يرانى ابدا !.. كان يتوقف احيانا أمام المرآة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ بشعور لا استطيع وصفه ولا تحديده .. **كنت أشعر انه ((يصنع)) لنفسه وجها !.. كنت على الاقل ارى ابتسامته واضحة فى محياه قبل ان يقف امام المرآة ، وكان ذلك يدهشنى كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يبتسم ابدا امام الكسندرين ميخائيلوفنا . فما ان يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة** ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعبيرا مرا صادرا من قلب مقروح ، تعبيرا يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبته ، مهما كان لديه من الرغبة القوية ــ التى قد تفوق طاقة الانسان ــ فى ان لا يظهر من هذا التعبير شىء البتة .. فالعذاب الحبيس يغضن الجبين ، ويقطب الحاجبين ، ويصوح النظرة من تحت النظارتين !

وهكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر ، فى طرفة عين!.. وكنت أنا ارتجف خوفا ، وكنت اخشى ان « افهم » هذا المنظر الذى ارى ، والذى ترك فى نفسى ــ الى الابد ــ شعورا مؤلما ممضا . وكان بعد ان يتأمل نفسه لحظة فى المرآة ، يدلى رأسه ويتخذ وضع الانحناء الذى

يلازمه متى كان مع زوجتـــــه ، ثم يدخل الى الكسندرين ميخائيلوفنا سائرا على اطراف الاصابع .

هذه الذكرى .. هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيـدا ، فيقف امام المرآة ، كما يفعل الآن . والآن ــ كما فى ذلك الوقت ــ لقيته على هذا الحال وانا اشعر نحوه بالكره والعداوة ، على غير ارادة منى !.. غير اننى حين سمعته يغنى (وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن ان ينتظر منه !) بلغ من فرط دهشتى اننى تسمرت فى مكانى لا استطيع حــراكا . كانت حالتى فى تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتى . كان قلبى منقبضا انقباضا رهيبا لا استطيع له وصفا ، بحيث ان اعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء الذى لم اكن اتوقعـه .. فاذا انا انفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم منى !

.. اذ ذاك انطلقت من المغنى المسـكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء ، بعيدا عن المــرآة ، وامتقع وجهه حتى اصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض عليه متلبسا بالجرم !.. ونظر الى مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غضبا جنونيا .. فما زادتنى نظرته الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليها بمضاعفة ضحكى دون ان اغض من بصرى !.. ثم مررت الى جانبـه وانا ما زلت أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا .

كنت اعرف انه وراء الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لا يدخل ، وقد تسمر فى مكانه من الغضب والخشية .. واخذت ارقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على شبه يقين من انه لن يدخل !.. ولم يخطىء ظنى ، فانه لم يأت الا بعد انقضاء نصف ساعة على ذلك . وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، نظرت الى فى شىء من الدهشة. ولكنها حاولت عبثا ان تفهم منى ما هنالك ، فاننى لم اجب بكلمة ، لأننى كنت كمن يختنق !.. وفهمت هى أخيرا ان اعصابى مضطربة لا استطيع ضبطها ، فقلقت لذلك اشد القلق . وحين استطعت ان أهدىء من روعى ، امسكت بيدها وقبلتها . **وفى تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فادركت ان الفكرة التى راودتنى كان يمكن ان تقتلها ، لولا اننى صادفت زوجها فى الوقت المناسب !**

***

وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت انها كمن بعث الى الحياة من جديد ..

واختلست نظرة سريعة اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من هيئة كالحة ، رصينة حزينة . ولكننى أدركت من صفرة وجهه — ومن رجفة خفيفة فى زاوية شفته — انه

لا يخفى اضطرابه الا فى كثير من المشقة والعناء . وقد حيا ألكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا . كانت يداه ترتجفان حين تناول قدح الشاى . كنت اتوقع انفجارا ، وكان ذعرى يزداد قوة . الا اننى قررت ان انسحب ، وان اترك الكسندرين ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها . لقد كانت هى الاخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه فى كثير من الخوف !

فبينما نحن فى صمت عميق ، رفعت بصرى فرأيت نظارتى بطرس الكسندروفتش تحدقان فى !.. وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت ان اصرخ ، وغضضت عينى ..

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ..

اما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

– ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم اجب ، فقد كان قلبى من شدة الخفقان بحيث لا استطيع ان انبس بحرف .

– ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال فى هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الى بيده اشارة وقحة .

وانقطعت أنفـاسى من فرط الاسـتياء ، فأرسلت الى الكسندرين ميخائيلو فنا نظرة متوسلة ، ففهمتنى .. واذ ذاك تضرج خداها الشاحبان ، وقالت لى بصـوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

ـ اذهبى الى غرفتك . سألحق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معا ..

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

ـ هل سمعت ما أقول ؟ أريد ان أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتنى . أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجـه الانفعال :

ـ أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا .

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ..

ـ انا ؟ انا اجعلك تحمرين ؟ انا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشـة هو الآخر ، والح على « انا » .. ثم أردف :

ـ تحمرين انت بسببى انا ؟ ولكن كيف يمكن ان اجعلك تحمرين ؟ الاولى أن تجعلينى انت احمر ، مارأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا فى ذهنى ، وقد قالها بطرس الكسندروفتش فى لهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ، واهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فارى الدهشة ، والعذاب ، واللوم ، والذعر ، تشع جميعا من وجهها الذى امتقع لونه حتى صار كوجوه الموتى ! .. وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل .. كان كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى بعد .. وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء ، فاضطرب ، وكان واضحا من اشارتى اننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علم ببعض الامور التى ظلت حتى ذلك الحين سرا !

ـ آنيت ، اذهبى الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع بطرس الكسندروفتش .

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لكنه جازم ، وقد نهضت عن كرسيها .

كانت تبدو هادئة ، الا ان هدوءها أخافنى أكثر من اى انفعال ممكن ، ولبثت فى مكانى لا استطيع حراكا ، كأنى لم اسمع ما قالته . كنت أحاول بكل ما اوتيت من قوة أن اقرا على صفحة وجهها ما دار فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى انها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ..

وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهو يمسك ذراعى ويرينى امرأته :

ـ كان لك ما اردت ياآنسة !

رباه ! لم أر فى حياتى يأسا كالذى أراه الآن فى هذا الوجه المتشنج، فى هذا الوجه الميت !.. وتناول بطرس الكسندروفتش يدى ، ودفعنى الى خارج الغرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخيرة . كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها . كان وضعها كله ينبىء عن ألم لا سبيل الى وصفه . فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

ـ حبا بالله ، حبا بالله ، ترفق بها ..

فأجاب وهو يلفنى بنظرة غريبة :

ـ لاتخافى ، لا تخافى ، ما من خطر . هى نوبة ثم تنقضى . اذهبى . اذهبى .

فلما وصلت الى غرفتى ، ارتميت على الديوان ، ووجهى بين ذراعى . ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال فى جحيم حقيقى . ثم لم أستطع صبرا فارسلت أسأل هل تسمح لى الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجىء اليها ؟ .. وجاءتنى مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن

تبلغنى أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا فى حاجة الى الراحة .

ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على ان اذهب وأجىء فى غرفتى ، من شدة شعورى بحرج وضعى . ومع ذلك كنت اتخفف من قلقى مرددة اننى المذنبة الاولى . ثم نمت انتظر الغد بفارغ الصبر ..

لكننى لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا فى الغد شيئا من الفتور نحوى ، فأدهشنى ذلك واحزننى . اعتقدت فى اول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النبيل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدت أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألنى ، كطفلة أيضا ، ان اغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءنى . ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لاتستطيع من سذاجتها اخفاءه . فكانت تارة تجيبنى بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفها وتداعبنى كانها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون فى قلبها .. وكانت كلماتها فى هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب . واخيرا سألتها صراحة عما بها ، وعما اذا كانت تريد ان تقول لى شيئا بالذات ، وهزها سؤالى

العنيف بعض الشيء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينيها الواسعتين الرفيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

ـ ليس بى شىء ، يانيتوتشكا ، الا انك تعرفين اننى اضطرب حين يوجه الى سؤال مباغت . وهذا ما فعلته الآن .. أؤكد لك ذلك .. ولكن اسمعى يا بنيتى وصارحينى بالحقيقة : هل فى قلبك شىء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلت سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

ـ كلا .

قلت ذلك وانا انظر اليها دون مواربة .

ـ حسنا جدا . لو تعلمين ياعزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل .. وليس معنى هذا اننى استطيع ان اظن فيك السوء ، ابدا ، اننى لا اسمح لنفسى بفكرة كهذه . ولكن افهمى : حين اخذتك فى بيتى كنت طفلة صغيرة ، وانت الآن فى السابعة عشرة من عمرك ، وانا الآن مريضة ، فالطفلة الان هى انا ، وانا التى يجب أن يعتنى بها . لم استطع ان اكون امك كما كنت أحب أن أكون ، على أن الحب ليس هو ما اعوزنى ؛ ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست انت المسؤولة عن ذلك ، وانما هى خطيئتى . اغفرى لى السؤال الذى طرحته عليك ، واغفرى لى أيضا اننى لم اف بكل الوعود التى قطعتها لأبى حين اخذتك فى هذا البيت ، وأن هذا ايضا ليقلقنى

كثيرا ، وكثيرا ما عذبنى ، ياعزيزتى .

ارتميت على عنقهـا باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديهـا بدموعى :

ـ ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ماصنعت فى سبيلى. لا تتكلمى هكذا ، انك تهصرين قلبى هصرا . لقد كنت لى أكثر من أم . نعم ، اننى أسـأل الله أن يجزيكمـا خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والامير ، من أجلى ، أنا اليتيمة البائسـة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة اللطيفة !

ـ كفى يانيتوتشكا ، كفى ! قبلينى قبلة أعنف ، قبلـة أقوى . هل تريدين أن أقول لك ؟ اننى اشعر أن قبلتك هذه هى الاخيرة ، لا ادرى من أين يأتينى هذا الهاجس !

فاحتججت اقول ، وانا انتحب كما ينتحب الاطفال :

ـ كلا . كلا . لاتقولى هذا . ستعيشين أياما سعيـدة كثيرة .. ستعيشين أياما جميلة . صـدقينى . سـنكون سعيدتين .

ـ شكرا ، شكرا على انك تحبيننى هذا الحب كله . ليس من حولى الآن ناس كثيرون .. لقد هجرونى .

ـ من هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

ـ كان من حولى فى الماضى اشـخاص آخرون . الا انهم هجرونى جميعا . لقد تبددوا كلهم كما يتبـدد السراب .

وانتظرتهم طويلا منــذ ذلك الحين .. لم أفعـل شيئـا غير الانتظـار ، طوال حيـاتى كلهـا .. ليبـاركهم الله ! **هـل ترين يانيتوتشكا ، أن الخريف يتقدم بنا ، وقريبـا يتساقط الثلج ، وسأموت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج . نعم ، وان هذا ليحزن قلبى . وداعا .**

كان وجهها شاحبا نحيلا ، وكان على كل خد من خديهـا بقعة حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتهما الحمى الداخلية .

واقتربت من البيـانو ، وعزفت بعض الانغام . وفجـأة انقطع أحد الاوتار .. فدوى من انقطاعه صـوت مباغت ، امتد ثم انطفأ فى ارتجاف .

وقالت بصوت ملهم وهى تشير الى البيانو :

ــ هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر ممـا ينبغى أن يشـد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات . لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم فى عناء . وكان الالم الاصم الذى يضطرم فى نفسها يشع فى وجهها ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع .

ــ هيا يانيتوتشكا ، كفى كلاما فى هـذا الموضـوع ، كفى ياعزيزتى ، كفى . هيا أحضرى الاولاد .

وأتيت بالطفلين .. ولاح عليها الارتياح وهى تنظر اليهما ،

وصرفتهما بعد ربع ساعة .

- حين أموت ، لن تتركيهما ، يانيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيرى !

- أسكتى ، أسكتى ، انك تقتليننى قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به .

فقالت وهى تبتسم بعد لحظة من صمت :

- اننى أمزح . هل صدقت قولى ؟ ألا تعرفين اننىفى بعض الاحيان أهرف فى الكلام هرفا . اننى الآن طفلة ، طفلة ، واننى فى حاجة الى أن يغفر لى ..

والقت على نظرة خجلى ، كأنما هى تخشى أن تقول أكثر مما ينبغى أن تقول .

وانتظرت ..

وأخيرا قالت وقد اغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمرة خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يسمع :

- حاذرى أن تخيفيه .

- من ؟

سألتها فى دهشة ظاهرة .

- زوجى . لا شك أنك ستقصين عليه كل شىء .

وازدادت دهشتى قوة ، فهتفت أسألها :

ـ ولكن لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟

ـ حسنا . قد لا تقولين له شيئا على كل حال .

قالت ذلك وهى تحاول جهدها أن تنظر الى نظرة ماكرة ، الا أن ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر فى وجنتيها التهابا . وأردفت تقول :

ـ كفى كلاما فى هذا الموضوع . كنت أمزح . هذا كل ما فى الامر . وكان قلبى يزداد انقباضا .

واردفت تقول ـ بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة ـ مرة أخرى :

ـ اسمعى مع ذلك . انك ستحبينهمـــا بعد موتى ، أليس كذلك ؟ ستحبينهما كأنهما ابنـــاك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما اقول ، وتذكرى اننى احببتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ..

فهتفت ، دون ان اعرف ماذا اقول ، وأنـــا ألهث وأختنق بدموعى :

ـ نعم ، نعم (*)

وتناولت يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محرقة قبـــل أن أستطيع سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع ان أنبس بكلمة .

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفـــكر ؟ ما الذى وقع بينهما البارحة ؟ » .

وبعد دقيقة شكت من انها متعبة ، وقالت :

ـ انني مريضة منذ مدة طويلة ، غير انني لم أشـــأ ان اخيفكما لانكما تحبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والان هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعيني الان ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدين ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدتها بان أعود فى المساء . وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ، فاننى لم أعد أحتمل اكثر مما احتملت .

وصرخت وأنا أشهق : ((مسكينة أينتها البائسة ! أى شك يستحثك الى القبر . أية لوعة جديدة تسممك وتعض قلبك دون ان تجرؤى على ان تقولى عنها كلمة واحدة ؟ رباه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذهالحياةالقاتمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجـول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشـــكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟.. وهذه المـرأة الممزقة التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع ان تصنع لنفســـها الما جديدا تخضع له وتموت منه ؟!))

***

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصـــة غياب اوفروف ـ سكرتير بطرس الكســـندروفتش ـ فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها واخذت أنبشها لأجـــد كتابا أقرؤه

« .. كنت اشعر انه « يصنع » لنفسه وجهـــا !.. فما أن يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة .. » (ص ٢٧١)

بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا . كنت احب ان أسليها عن خواطرها السود ، فكنت ابحث عن شيء سهل مفرح . ولبثت ابحث مدة طويلة وانـــا ذاهلة اللب . وتكاثف الشفق ، واخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، واخـذ غمى يزداد قوة وعمقا . ووقع بين يدى مرة أخــرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيهالرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت احتفظ بهذه الرسالة فى قميصى .. هذه الرسالة التى حملت الى الصقيع، والمجهول ، والسر ، والتىكانت تؤثر فىحتى الآن تأثيرا نذيرا بالشر !.. وساءلت نفسى : ((**ترى ما الذى سـيقع لنا ؟ ان الركن الدافىء الذى كنت ألتجىء اليه سيتهدم .. ان النفس الصافية الرائقة التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى، ما الذى ينتظرنى ؟**)) كنت كأنما نســيت ماضى ، رغم انه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر اكثر ما أفكر فى المســتقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول . إننى أستطيع ان اعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشـــــة فى ذاكرتى نقشا عميقا .

كنت أمسك بين يدى الكتاب والرسالة ، وكنت غارقةفى دموعى . وفجأة انتفضت مذعورة . ان صــوتا اعرفه كل المعرفة يرن فوقى . واحسست فى الوقت نفسه بأن الرسالة

تنتزع من بين يدى . فصرخت وانتصبت واقفة ، فرايت بطرس الكسندروفتش أمامى !.. وامسكنى من يدى بقبضة قوية وسمرنى فى مكانى ، بينما مد الرسالة باليد الاخرى نحو النور محاولا ان يقراها . وصرخت . كنت افضل ان اموت على ان ادع له الرسالة !.. ورايت من بسمته الظافرة انه توصل الى قراءة سطورها الاولى . طاش لبى .. وما هى الا دقيقة واحدة حتى ارتميت عليه وانا لا اكاد اعى ما افعل فانتزعت الرسالة من بين يديه . وقد تم ذلك بسرعة عظيمة حتى اننى لا افهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى يدى . لكننى وقد لاحظت انه يهم ان ينتزع منى الرسالة مرة ثانية ، دسستها بسرعة فى قميصى ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة فى صمت . وكنت ما ازال ارتجف خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفتاه المرتجفتان قد ازرقتا من شدة الغضب ، فقال فى صوت أصم :

ـ لا تضطرينى الى استعمال القوة . اعطينى هذه الرسالة بارادتك !

كان الشعور بالعار والامتعاض قد قلب نفسى راسا على عقب ، وتلك الاهانة الفظة قد خنقت انفاسى . فانهمرت سيول من دموع محرقة على خدى الملتهبين .

ولبثت مدة طويلة لا اســــتطيع من هــول الاضطراب والارتجاف ان انبس بكلمة .. فقال وهو يتقدم منى خطوتين :

ــ هل تسمعين ؟

فصرخت وانا أبتعد عنه :

ــ دعنى ، دعنى . ان ما تفعله شر . ان ما تفعله لحقــير خسيس . انك تنسى نفسك !.. دعنى امضى .

ــ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ اأنت تجرؤين على مخاطبتى بهــذه اللهجة .. بعد ان .. آمرك بان تعطينى هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم منى خطوة اخرى ، الا انه وقد لمح فى عينى قــوة الاصرار والعناد ، توقف متحيرا . وقال اخيرا بلهجة جافة ، تنطوى على الاصرار ، وان جاهد لكبح جماح نفسه :

ــ حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحله . ولكن قولى لى اولا من ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا ارى الخزانة مفتوحة ؟ من اين اخذت المفتاح ؟

قال ذلك بعد ان أجال بصره من حوله .. فانبريت له :

ــ لن اجيب على سؤالك . ولا استطيع ان اتناقش معك . دعنى امضى . دعنى !

واقتربت من الباب . فقال وهو يمسكنى من ذراعى :

ــ لا . لن تخرجي هكذا !

وانتزعت ذراعى منه دون ان اقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة اخرى نحو الباب :

ـ اعلمى اننى لا اسمح لك بان تتلقى فى بيتى رسائل غرام من عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظرات مجنونة .

ـ لذلك ..

ـ كفى .. لا اسمح لك بان تخاطبنى هكذا .. يا الهى ، يا الهى !

ـ هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما انتابنى من ذعر ويأس . ان هذا المشهد قد بلغ من القسوة حدا لا استطيع معه ان افهم ولا ان اعى ، فنظرت الى بطرس الكسندروفتش اتوسل اليــــه بعينى ان يسكت . كنت مستعدة لان اغفر له ظنـــونه على شريطة ان يتوقف عن الكلام . فحدق فى وقد لاح فى وجهه تردد ظاهر .

همست مذعورة :

ـ لا تخرجنى عن طورى !

فهتف اخيرا كأنما هو قد عزم امرا :

ـ كلا ، لن ينتهى الامر هكذا .

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

- اعترف لك ان نظرتك كادت تردنى عن ظنونى ، الا ان الاشياء تتحدث من تلقاء نفسها ، وا أسفاه . لقد استطعت ان اقرأ بداية هذه الرسالة . انها رسالة غرامية . لن تستطيعى ان تحولينى عن اقتناعى هذا . كلا ، انتزعى هذه الفكرة من رأسك . ولئن ترددت دقيقة او بعض دقيقة فهذا لا يزيد على ان يدل على اننى يجب ان اضيف الى مزاياك الرائعة مزية اخرى هى القدرة على الكذب فى كثير من البراعة .. لذلك اكرر ..

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكره . كان ممتقع اللون ، وكانت شفتاه المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع ان يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من العناء .

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر اننى وحدى تحت رحمة هذا الرجل القادر على اهانة امرأة . ثم ان الدلائل كلها كانت تديننى ، ومع ذلك كنت اتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشعور بالعار والقلق كان يحطمنى تحطيما . وهرعت كالمجنونة دون ان اجيب على كلامه ، فخرجت من المكتبة ، ولم يثب الى رشدى الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت ان ادخل اليها سمعت ورائى وقع خطوات بطرس الكسندروفتش ، فتسمرت فى

مكانى كأن صاعقة وقعت على راسى .

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذى سيحدث ؟ ان كل شىء افضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تتلقاها .. »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الاوان كان قد فات ، فها هو ذا الى جانبى . همست وانا امسك بذراعه :

ـ رحمة بها . نذهب أين تشاء . لكن لا ندخل الى هنا . اعود الى المكتبة او الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء . والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدنى عنه :

ـ انت التى تقتلينها .

وتبدد من قلبى كل رجاء . شعرت ان ما يريده انما هو ان يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث .

فقلت وانا اصده بكل ما اوتيت من قوة :

ـ حبا بالله ، ارحمها ..

ولكن فى هذه اللحظة فتح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا امامنا .

نظرت الينا فى دهشة ، وكان وجهها ممتقعا اكثر منه فى اى وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا انها وقد سمعت اصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها .

سألتنا وهى تنظر الينا فى غير قليل من الدهشة :

ـ ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضـــع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتميت عليها وعانقتها وادخلتها الى مخـــدعها ، ولحق بى بطرس الكسندروفتش ، ولبثت اعـــانق الكســـــــندرين ميخائيلوفنا فى قوة وعنف وقد اغرقت وجهى فى صدرها الذى يخفق خفقانا عنيفا .

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة اخرى :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

ـ اسألى الآنسة . لقد دافعت عنها أمس .

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتمى على احد المقاعد فى ثقل وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقـــول وقد لاحت على وجهها خشية غريبة :

ـ يا الهى ! ماذا وقـــع ؟ انك مضطرب ، وهى خائفة . انها تبكى . قولى لى يا آنيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقتـرب منى وامسك بكتفى وابعدنى عن امرأته :

ـ كلا ، دعينى اتكلم قبلها .

ثم اضاف وهو يضعنى فى وسط الغرفة :

ـ ابقى هنا ، سأحاكمك امام تلك التى كانت لك اما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقول لها :

ـ وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا استطيع ان اجنبك شرح هذه المسألة البشعة ، ولكن لابد من ذلك .

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تنقل نظرتها القلقة الرهيبة بين زوجها وبينى :

ـ رباه ! ماذا هنالك ؟

واخذت اقلب يدى وافركهما فى انتظار الدقيقة الرهيبة . ان المرء لا يستطيع ان يأمل من هذا الرجل اى شعور بالرحمة .

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى اريده هو ان تحكمى عليها معى . لقد كنت دائما تتخزبين لها وتدافعين عنها ـ لا ادرى لماذا ، فتلك نزوة من نزواتك ـ حتى لقد ناقشتنى بالامس فى شأنها واستبسلت فى الدفاع عنها .. ولا ادرى الآن كيف اشرح لك الامر . اننى لأحمر خجلا حين افكر فيه .. الخلاصة انك قد دافعت عنها واغرقتنى باللوم واتهمتنى بقسوة لا محل لها ، حتى لقد لمحت الى عاطفة اخرى لعلها هى التى تدفعنى الى هذه القسوة التى لا محل لها . انك .. ولكننى اتساءل لماذا لا اتوصل الى خنق حمرة الخجل هذه

التى تصعد الى وجهى حين افــــكر فيما ذهبت اليه من افتراضات . لا ادرى لماذا لا استطيع أن اتكلم عن ذلك بهدوء وصراحة امامها .. الخلاصة انك ..

فقاطعته الكســندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمى والشعور بالخجل وقالت :

ـ كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالامس كان من بنات خيالى انا ، اما الآن فلم يبق فى نفسى ظـل من شك . اغفر لى تلك الظنون التى راودتنى . نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب ان يغفر لى ، ويجب خاصة ان لا يقال لها شىء من ذلك البتة .

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

ـ آنيت آنيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقــد اراد ان يمزح ، انا المذنبة ، وتلك مزحة فى غير محلها .

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون ان يرحمهــا ودون ان يهتز لضراعاتها :

ـ الخلاصة : لقد كنت غيورة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتداعى ساقاها ، فتهافتت على احد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سامحك الله ، سامحينى يانيتوتشكا ، انه ذنبى ، اننى

مريضة . اننى مريضة ، اننى ..

فصرخت انا كالمجنونة ، وقد فهمت اخيرا لماذا يريد ان يحكم على امام امرأته :

ـ هذا ظلم . هذا عار . هذا جبن . هذه حقارة . هذه خسة . انك ..

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تأخذ يدى :

ـ آنيت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا لا يوصف :

ـ هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يفرز فى امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

ـ هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة انت !.. اما نحن (قال ذلك لاهثا وهو يشير الى بيده) فثقى اننا لا نخشى شيئا من مثل هذا الايضاح . ثقى اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض او نحمر او نسد آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع . معذرة ، اننى أتكلم بلا لف ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لابد من ذلك . هل انت واثقة يا سيدتى من طهارة هذه .. البنت !

فغمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كاليتة من شدة الخوف تقول :

ـ رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

ـ لا تستعملى الفاظا جوفاء . أرجوك . اننى لا احب ذلك . نحن الآن أمام حادث لاتعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود الابتذال . اننى أسأل عن سلوكها . هل تعلمين أن ..

ولكننى لم أدعه يتابع كلامه ، بل امسكت بذراعه وجررته بقوة وعنف الى ركن من اركان الغرفة ــ فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى لأمكن أن يضيع كل شىء ــ وهمست فى حماسة أقول له :

ـ لاتتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور . ان اتهامى اتهام لها أيضا . انها لا تستطيع أن تحكم على لأننى أعرف كل شىء .. كل شىء .. هل تسمع ؟

فرمانى بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضحك ، وكان الدم قد صعد الى وجهه ، فكررت اقول :

ـ أعلم كل شىء ، كل شىء ..

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شفتيه سؤال حزرته .

والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقة وقد ظهر فى محياها الوجل والخجل . قلت بصوت عال :

ـ أنا وحدى المذنبة . اننى أخدعك منذ أربع سنين ! .. لقد أخذت مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ اربع سنين آخذ كتبا ، وقد فاجانى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدى كتابا ينبغى أن لا أقرأه . وهو يخاف على ويتصور الخطر كبيرا !

ثم اردفت أقول بحماسة ، وقد لاحظت أنه يبتسم :

ـ على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى . أنا وحدى المذنبة . لقد كان الاغراء أقوى منى . فلما وقعت فى هذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف بها .. هذا كل شىء . نعم هذا كل ما كان بيننا .

ـ أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك فى اذنى .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصغى الى بانتباه عميق، ولكن وجهها كله كان يعبر عن الارتياب فيما أقول . كانت تنقل بصرها بين زوجها وبينى بلا انقطاع . وخيم الصمت . كنت لا أستطيع أن اتنفس الا فى كثير من العناء . ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت عينيها بيديها

كأنها تريد أن تفكر وان تزن كل كلمة من الكلمات التى قلتها . ورفعت أخيرا راسها وحدقت فى قائلة :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتى ، اننى أعلم أنك لا تستطيعين الكذب . هل هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

ـ نعم . هذا كل ما حدث .

فاتجهت الى زوجها تسأله :

ـ هل هذا كل ما حدث ؟

ففمغم بالرغم منه قائلا :

ـ نعم . هذا كل ما حدث ، كله .

ـ هل تقسمين على ذلك يانيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

ـ نعم . أقسم .

الا اننى لم أستطع ان احتمل نظرة بطرس الكسندروفتش ولا الابتسامة التى ارتسمت على فمه حين سمعنى أقسم ، فاحمررت فجأة . . **ولم يخف ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فانطبعت على وجهها علائم قلق ساحق فظيع !**

وقالت فى حزن :

ـ كفى . أصدقكما . لا أستطيع الا أن أصدقكما .

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ ان الاعتراف كاف فيما أرى . هل سمعت ماقالت ؟ فما رأيك اذن ؟

ثم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا . وكان المشهد يزداد قسوة على نفسى .

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلا :

ـ سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدرى ماذا عندنا منها فى المكتبة ، ثم ..

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

ـ اى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الى يقول ، وهو يبتسم ابتسامة واضحة :

ـ اى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر .

ولم استطع أن أجيب من شدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، واعقب ذلك صمت طويل .. فأخذ بطرس الكسندروفتش يذهب ويجىء فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه الانزعاج .

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

ـ اننى أجهل ما حدث بينكما ..

ثم اردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد

اوشكت ان تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التى كان يرميها بها زوجها ـ وكانت هى تحاول أن تتحاشاها ـ أردفت تقول :

ـ اذا كان هذا كل ما حدث فاننى لا أفهم هذا الغم الذى يسيطر علينا نحن الثلاثة . ان الذى ينبغى أن يلام انما هو انا، انا وحدى ، وذلك ما يعذبنى . لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعة ذلك ، وعلى نيتوتشكا أن تسامحنى . أما انا فلا اشعر أن من حقى أن أحكم عليها . وانى لأتساءل مرة اخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى . انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماستها وهى ترمى زوجها بنظرة فاحصة) **أنظر اليها . هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتى الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل مايشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟** (قالت ذلك وهى تجذبنى اليها بحركة مداعبة) . ان لها روحا صافية كالنهار ، وضميرا لا يمكن أن يخطىء .. كفى يا عزيزى ، كفى . لا شك أنه قد اندس فى كربنا المشترك عنصر جديد . لعل ظلا من عداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحب وحسن التفاهم . سنطرد جميع شكوكنا . ربما كان هنالك حتى الآن أشياء

كثيرة لم نوضحها فيما بيننا ، وأنا المسؤولة الاولى عن ذلك .
انا المسؤولة الاولى لأننى أول من خبأت نفسى عنكما ولأننى أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن ينبت فى نفسى ، وهذا كله يرجع الى رأسى البائس المريض . ولكن .. ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تغفر الى ، لأن مادار فى خلدى من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال .

ونظرت مرة اخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به . وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها . انقطع عن السير وتسمر امام امراته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره . كان كأنما هو سر برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها . وزاد اضطرابها أمام هذه النظرة التى يرميها بها . وانتظر قليلا كأنما هو يريد أن يتيح لها أن تتابع حديثها . فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا . واخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف فى ضحكة ساخرة ، مرة ، متطاولة ، يقول :

ـ اننى أرثى لحالك أيتها المرأة البائسة .

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحة :

ـ لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى . ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحمليني على الاجابة ، أن تغرقيني بشكوك جديدة ، او على الاصح بشكوك

قديمة لا تستطيع كلماتك أن تخفيها . ان معنى كلماتك هو أنه ينبغى أن لا نؤاخذ نيتوتشكا لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتب غير اخلاقية ، هذه القراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ الا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تلميحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيابى وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى . حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى . أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن اتكلم بلا لف ولا دوران . نعم لقد اردت أن تقولى أمس أن الحب لدى بعض الاشخاص (ومن الملاحظة ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رايك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى .. الى آخر ما هنالك من صفات أغدقها عليهم كرمك !) .. ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن ان يعبر عن نفسه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيان ، مستعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيان ايضا . لا أذكر الآن على وجه الدقة الكلمات التى استعملتها أمس .. أرجوك ، دعينى أتكلم . انها تستطيع أن تسمع كل شىء ، كل شىء ، اكرر ذلك للمرة المائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شىء ؛ إنك مخدوعة فى أمرها . ولكننى لا أفهم لماذا يحلو لك أن تحشرينى فى زمرة هذا النوع من الاشخاص !..

ليس فى سنى يقع المرء فى عشق بنت كهذه ، وصدقينى أخيرا ، ياسيدتى ، اذا قلت لك اننى أعرف واجبى ، ومهما تصدعى رأسى بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ما سبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للاشمئزاز ، رغم السمو الذى نحب أن نرفع اليه عاطفة الرذيلة . ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسمع بعد الآن شيئا عن هذه الحقارات .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكى .

وقالت أخيرا وهى تشهق وتحيطنى بذراعيها :

ـ اننى أقبل أن أتحمل هذا كله وحدى . أتمنى ان تكون ظنونى دنيئة وان تنظر اليها نظرة احتقار . ولكن أنت أيتها البائسة لماذا حكم عليك أن تسمعى هذه الاتهامات المهينة ؟ اننى لا أستطيع أن أحميك . اننى لا أملك حق الكلام ! رباه ! اننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت ياسيدى . ان الامر أقوى منى .. ان ما تقوله جنون ..

فهمست فى أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

ـ كفى ، كفى .

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسى الذى وجهته اليه ، أن يزيد فى غضبه وسخطه ، وكنت ارتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

ـ ولكن ايتها المراة العميـاء ، أنت اذن لا تعلمين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة . ثم استأنف كلامه وهو يتجه الى وينتزعنى من بين ذراعى امراته :

ـ اذهبى من هنا . لا أسمح لك بان تلمسيهـا . انك تلوثين زوجتى ، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ ولكن فيـم أحرص على السـكوت حـين يكون من الضرورى الذى لابد منه أن أتكلم ؟ .. سأقول كل شىء ، كل شىء . اننى لا أدرى ، ياآنسـة ، ما الذى تعرفينـه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنين أنك تهددينني بـه ، ثم اننى لا احب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

ـ اسمعى ، أقول لك اسمعى ..

فهتفت وقد هرعت ادخل بينها وبينه :

ـ اسكت !

ـ اسمعى !

ـ اسكت باسم ..

فقاطعنى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

ـ باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى ياسيدتى . **لقـد**

انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا مايجرى فى بيتك ، هذا ماتعمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا مالا ترينه ، ولا تحبين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر . ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا هى صفراء كالميتة ..

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يسمع :

– مستحيل !

– لقد رايت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدى ، وقرأت منها الاسطر الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك . انها رسالة غرام ولقد انتزعتها من بين يدى ، وهى الآن معها . الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا . وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليك الا أن ترى الرسالة ، فتحكمى بنفسك !

فهتفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتمى نحوى :

– نيتوتشكا .. ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى . يا الهى ! كيف يمكن أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها فى يديهـا وهى تنشج نشيجا قويا ، ثم استأنفت تقول :

– ولكن لا . هذا مستحيل !

ثم حدقت فى زوجها قائلة :

– أنت مخطىء . لست أفهم ما معنى هذا كله ! انك لم

تخدعينى ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شىء دون أن تخبئى شيئا ؟ لقد أخطـــأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيت ، لماذا لا تقولين لى كل شىء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فهتف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

– أجيبى . لماذا لا تجيبين ؟ أجيبى : هل رأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

– نعم .

– وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

– نعم !

– وما زالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

– نعم ، نعم ، نعم .

قلت ذلك دون أن يعنينى هل أنا أجيب على الاسئلة التى تطرح على ، فقد كان كل همى أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة .

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

– هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف فى النبل مسرف فى حسن الظن ! صدقينى ،

دعى هذه الافتراضات التى نبتت فى دماغك المريض .. انك ترين الآن حقيقة هذه .. البنت .. لقد حرصت على أن أبين لك خطل ظنونك . لاحظت ذلك منذ زمان طويل . ويسعدنى أخيرا أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن فيها . **كان يؤلمنى أن أراها الى جانبك ، وان أراك تداعبينها ، وأن تجلس الى مائدتنـــا ، وأن أحس بوجودها فى بيتنا ، كانت عماوتك تثيرنى . ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتبهت اليها ، وراقبتهـا .** ولاحظت انت ذلك فنسجت حوله ألف شىء وشىء ، الا ان كل شىء قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز .

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

ـ غدا يا آنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت الكسندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

ـ لا تتعجل . اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها . لا تنظر الى هذه النظرة الفظيعـة ، لا تسخر منى . سأجعلك حكما على رأيى . آنيت ، بنيتى ، تعالى الى جانبى ، اعطينى يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول فى صوت غارق فى الدموع وهى تنظر الى زوجها فى تواضع وذل :

ـ ما من أحد معصوم من الخطيئة . من ذا الذى يستطيع

منا أن يرفض يد أحد ! اعطيني يدك يا آنيت ، يا ابنتي . انني لست أفضـــل منك ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسيئني ، لأنني أنا أيضا خاطئة .

فصرخ بطرس الكسندروفتش دهشا :

ـ سيدتي ، ســيدتي ، انك تنسين نفسك ، عودي الى صوابك !

ـ انني لا انسى نفسي . أرجوك أن لا تقاطعني ، دعني أتم كلامي حتى النهاية . لقد رايت بين يديها رسالة ، بل لقـد قرأت الرسالة . وانت تزعم ـ وهي تعترف ـ ان هـــذه الرسالة من عشيقها !.. انني لا أدافع عن الرذيلة ، ولو اردت ان افكر ، لفهمتَ أولشعرت ان هذه الطفلة ربما كانت بريئة!.. كلا ، انني لا احاول أن اغفر الرذيلة ! ها أنا ذا أبرىء نفسي من ذلك لأريحك . نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجة ، لو كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك . ها أنت ترى اذن انني لا استثني نفسي .. انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذني وتحنق علي . لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر في سوء. لعل عاطفة مفاجئة قد جرفتها دون أن يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها !.. واذا كان الامر كذلك فانا المذنبة الوحيدة لأنني لم أراقب قلبها . لعل هذه الرسالة هي الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التي

تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هــذه الطفلة !.. انك اذن لم تر شيئا من هذا الخفر الذى يشع فى وجهها الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها فى اضطراب شديد وارتبـاك عظيم ، ولأنها تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التى لا محل لها . نعم ، نعم ، أن هذه الاسئلة لا محل لها ، انهـا وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية . اننى أســتنكر تصرفك . لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

– نعم ، ارحمينى ، دافعى عنى ، أتوســل اليك . لا تتركينى .

وسقطت على ركبتيها .

.. بينما تابعت هى كلامها تقول بصوت مخنوق :

– ولولا اننى موجودة ، فلربما كنت اخفتها بكلامك، الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضـميرها وحطمت قلبها .. يا الهى ! كنت تنوى أن تطردها ! ولكن هل تعلم انك ان طردتها طردتنى معها . نعم ، ان طردتها طردتنا كلتينا . هل سمعت ما أقول يا سيدى ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقـد أوشك انفعالها المرضى ان يبلغ درجة التشنج .

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

ـ يكفى هذا يا سيدتى . لقد سـمعت ! كفى ، كفى . اننى أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونيـة ، أعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سـيدتى ، هل تسمعين ؟.. نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى . لست أحب هذا . لا تذرى الرماد فى العيون !.. اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تتركى البيت .. فمـا على الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تنفذى هذا المشروع فى الوقت المناسب، منذ .. نعم ، استطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنت قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا . كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستندة الى وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألمها . ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغمى عليها !

فصرخت وأنا أرتمى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

ـ أوه . حبا بالله ، ارحمها ، ارحمها . لا تزد على ماقلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات . فها أنا أسمع جواب كلماتى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

ـ انتهى الامر . قتلتها . ادع الناس . انقذها . سأنتظرك فى حجرة عملك . أريد أن أكلمك . سأقول لك كل شىء ..!

ـ كل شىء ؟ عن ماذا ؟

ـ فيما بعد .

ودامت الازمات العصبية بعد الاغماء ساعتين ، واهتز البيت كله وانقلب راسا على عقب . وهز الطبيب راسه وقد ظهرت فى وجهه علائم القلق . وبعد ساعتين دخل بطرس الكسندروفتش الى حجرة عمله . لقد ترك زوجته منذ لحظة . كان ممتقع اللون مضطربا ، فأخذ يمشى فى طول الفرفة وعرضها جيئة وذهابا ، ويقرض اظافره بقوة حتى ليخرج من أصابعه الدم . لم أره فى حياتى على مثل هذه الحال !

واخيرا قال بصوت مبحوح خشن :

ـ ماذا تريدين أن تقولى لى ؟

ـ اليك الرسالة التى اردت أن تنتزعها منى . أهذه هى ؟

ـ نعم .

ـ خذ .

فأخذ الرسالة وحملها الى النور . راقبته بانتباه شديد .

وما هى الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقـــرا التوقيع المذيل به .!. ورايت الدم يصعد الى وجهه !

سألنى وقد تجمد من فرط الدهشة .

ـ ما معنى هذا ؟

ـ وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين فى أحد الكتب ، ففهمت انها نسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شيء . وقـد احتفظت بها منذ ذلك الوقت وانا لاأدرى لمن يجب أن أعطيها. كنت لا استطيع ان اردها اليهـــا هى .. أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئا من هذه القصـة الحزينة . لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدرى !.. ان ذلك ما زال غامضا فى ذهنى . اننى لا أستطيع أن انفذ الى خفايا نفسك . لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك . ولكن لماذا ؟ لكى تظفر على ما يسكن رأســها من اشباح ؟.. لكى تسيطر على خيالها المريض ؟.. لكى تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، فى حين أنها خاطئة ؟!.. ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هى الا الفكرة الثابتة التى تستبد بنفس تذوب .. ما هى الا التوجع الاخير يصدر من قلب حطمه الظلم الانسانى بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت فى هذا الحكم الظالم . « انك لا تحبنى » ، هذا ما قالته ، هذا ما ارادت أن تفهمك اياه . ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا

بلا رحمة . وداعا . اعفنى من سماع أيضاحاتك . ولكن انتبه ، اننى أعرفك حق المعرفة ، اننى اقرأ حقيقتك فى نفسك، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتى ، وانا لا اكاد اعى ماذا افعل . وفى اللحظة التى هممت فيها ان افتح الباب ، استوقفنى « اوفروف » ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ وهو يقول لى فى كثير من الاحترام والتعظيم :

ـ احب أن أكلمك .

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم اجبته وانا امر امامه :

ـ فيما بعد . اعذرنى الآن ، اننى مريضة أتألم .

فقال وهو ينحنى ويبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ حسنا . الى الغد ! (١)

تمت

---

(١) هكذا ختم « دستويفسكى » الرواية بهذه الخاتمة التى تكاد تبدو مبتورة ، مثيرة للحيرة والتأمل ، بحيث توحى كأنها تفصل بين مرحلتين من حياة بطلتها التى ترويها .. فهى ـ من ناحية ـ تسدل الستار على المرحلة الاولى ، مرحلة الطفولة ، واليتم ، والذكريات المريرة .. وهى ـ من الناحية الاخرى ـ ترفع الستار عن المرحلة الثانية ، مرحلة الشباب ، والامل ، والتفتح للحياة .. وللحب !

رجال "أرامكو"

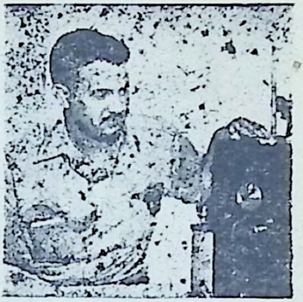

تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان المجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى اصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فاصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد. وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية

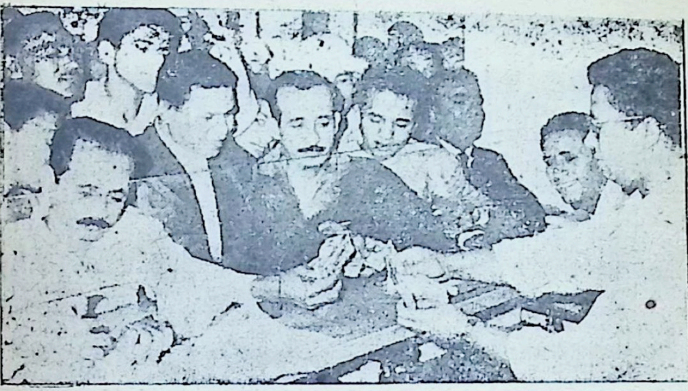

الاشتراكية

حققت لك الأرباح

وصندوق توفير

بنك مصر

يضاعفها لك

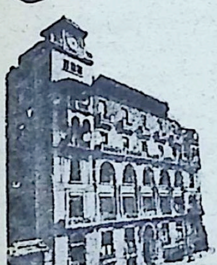

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

قدمنا لك فى العدد ٤٨ من مطبوعات كتابى الترجمة الكاملة لقصة « فرانسواز ساجان » الرابعة : (هل تحبين برامز ؟)

وفى العدد القادم نقدم لك الترجمة الكاملة لقصتها الجديدة :

السحب الرائعة

أحدث ما كتبت فرانسواز ساجان

ترقب صدورها فى منتصف يونيو الحالى .

الجمعية التعاونية للبترول

ربع قرن فى خدمة الاقتصاد القومى

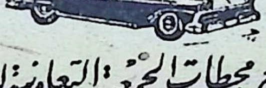

فى جميع محطات الجمعية التعاونية للبترول

نحن نقرأ لك كل شهر عشرات الكتب
العالمية، القديمة والحديثة، كى ننتقى
لك كتابا من أروعها نقدمه إليك فى
منتصف كل شهر بنصه الكامل، فى
ترجمة دقيقة معتمدة مراجعة
وإن "مطبوعات كتابى" لفخورة بأنها
ظفرت برضائك فى أعدادها الماضية
فما هى تحفتها القادمة التى أعدتها لك؟
اقرأ التفصيلات فى الداخل
مطبوعات كتابى
يصدرها: حلمى مراد
الترجمة الكاملة الأمينة
لشوامخ الكتب العالمية